هؤلاء لا يأكلون الشكولاتة !

مجموعة قصصية

أميرة الوصيف

إهداء

" أُهدي هذه المجموعة لأوطان الإنسانية في كل مكان ، وإلى أبي وأمي أُهدي أولى خطواتي " .

مقدمة

في مجموعتي الأولى تلك ؛ حاولتُ أن أُذيب سكر الأدب في شراب المعاناة ؛ الذى يحتسيه "بنى الإنسان" صباح ومساء حياتهم الأولى !

هي تجسيد قلمي لواقع ؛ يحياه أناس بكوكبنا الأرضي العتيق؛ رأيت خلالها أنه من الراقي أن يُعانق دمعي كلماتي ، ويدون الاثنان معاً "مأساتي" أنا الإنسان !

عـزيـزي أنـا

وسـط ربكـة مكتبيـة، واخـتلاط أوراق، ومـذكرات مُمَـزَق بعضها، والبعض الآخر في طريقه للتمزق، يجلس أحمد مضـطرباً، وخائفاً ينظر حوله وكأن الشرطة أصدرت فرمانها الفوري بالقبض عليه !

ينظر شارداً دقيقة من الزمن، ثم يُمسك بقلمه وورقته البيضاء ليُطلِق لقلمه العنان لكتابة بعض السـطور الـتي لا تـزال أفكـاراً في ذهنه.

مكث أحمد مُكِباً على وجهه ليرسم بقلمه الملامح الأولى لخطابه القادم الذي يود إرسَاله لصديقه المُقرَب، الذي آثر الشكوى له عـن الشكوى للغرباء، ولأنه شديد الإيمان بعبارة "كل قريب حبيب".

همس الرجل لقلمه في سكون قائلاً: صديقي العزيز رأفت.. أكتب إليك هذا الخطاب لكي... ومـا كـاد أيـوب يُكمِـل همسـته ووجد صوتًا قويًـا بداخلـه يقطـع حبـل أفكـاره بشـكلٍ جنـوني،

وسرعان ما دخل هذا الصوت الداخلي مع الرجل في حوار أقرب إلى النزاع !

ارتبك بعض الشيء، وإذ بيده تتوقف عن الكتابة مُستجيبَة لنداء عقله الذي أمر كيان الرجل، وكافة حواسه بضرورة الانتباه لما يقوله ذلك الصوت المفاجئ.

ودون مُقدِمات مُدهِشة دار حوار بين أحمد والصوت الذي يقطن نفسه.

فيبدأ الصوت بقوله غاضباً: لماذا تكتُب خطابك لرأفت ؟ أليس هذا هو صديق طفولتك الذي لم يسأل عنك يوماً منذ انتهاء دراستكما بالجامعة ؟!

تسبب ذلك التساؤل في إثارة مشاعر الوجع بقلب أحمد، لكنه أغمض عينيه برهة، ثم استعاد حضوره مُجيباً: نعم كان رأفت صديقي منذ زمن بعيد لكنه انقطع عني فجأة.

تداخلت الموجات الصوتية التي تسكن كيانه لتطرح عليه تساؤلاً آخر قائلة: ولماذا تناديه صديقي العزيز إذن ؟

تنهد تنهيدة تملؤها الحسرة والمرارة قائلاً: ربما لديه مبرر !!

ارتطمت موجات الصوت التي تشكل كيان الرجل بعبارته الأخيرة رافعة راية التطفل مرددة: وما هو مبرر صديق في هجر صديقه ؟

رفع أحمد رأسه ناظراً لأحد أعشاش العنكبوت بغرفته الضيقه قائلاً بنبرات حزينة متقطعة: ربما لعجزي الجسدي الذي أصابني عقب تخرجي في الجامعة على أثر اصطدامي بشاحنة على الطريق المؤدي لمنزلي.

– جعلني غير قادر على التخطيط لمستقبلي المُقبل كما يخطط هذا العنكبوت لغده القادم !

في تلك اللحظة الزمنية توقف الصوت الداخلي الذي يسكن نفسه عن الحديث ووجد نفسه لا يحادث أحداً، وأخذ يُكمل نظرته التأملية لأداء العنكبوت النشط الذي لم يجد ما يعيق عمله اليومي.

هبطت نظرات أحمد أرضاً واسترجع بذاكرته آخر مشهد جمع بينه وبين صديقه رأفت، فإذا به يتذكر نظراتهما، وضحكاتهما، وشخصياتهما التي كادت أن تصل إلى حد التماثل في تفاصيلها الدقيقة !

وعلى حين غفلة، عاود الصوت الداخلي حواره مرة ثانية قائلاً: لماذا تكتُب إلى شخص تخلى عن جوارك في وقت الضيق ؟

شعر أحمد بالحرج الزائد أمام نفسه، وأخذ يتصبب عرقاً بشكل هستيري، وإذ به يسارع في تمزيق ورقة الخطاب واستبدالها بورقة أخرى بديلة، ليدون فيها متعجلاً "صديقي العزيز مراد..." وفجأة كف عن الكتابة دقيقة.

وإذ بصوته الداخلي يخرج وكأنه "صرخات" هذه المرة، قائلاً صوت يملؤه الضجيج: أتكتب رسالتك لشخص بعثت إليه خطابات عدة، ولم يتكرم بالرد عليك بخطاب واحد ؟!

وضع الرجل يده على أذنيه وكأنه يريد التوقف عن سماع شيء يزعجه، لكنه لا يستطيع القضاء على مصدر الصوت، فالصوت يخرج من قلبه ووجدانه وعقله، وتلك الأشياء من المستحيل إيقاف صراخها يوماً.

شرد أحمد قليلاً ليتذكر نبرات صوت رفيق دربه مراد الذي لم يلمحه بصره منذ زيارته الأولى والأخيرة له بالمستشفي إثر حادثته الأليمة، وهو يقول له بصوت أجش: هذا هو الكارت الخاص بي يمكنك التواصل معي إذا أردت شيئاً فيما بعد.

شعر بالخجل أكثر من ذاته، وحاول أن يسدل مسرعا الستار على خطابه لرأفت، وخطابه لمراد، فأسرعت يداه بتمزيق الخطاب مرة ثالثة.

وحينها سقط القلم أرضاً من يد الرجل وكأنه أعلن تمرده على ذلك الوضع المُهين معرباً عن غضبه، وراغباً في أن يُجيبه أحمد عن سؤاله الأبدي وهو "إلى متى سيظل يكتب ويكتب إلى أصدقاء وهميين ليس لهم ظِل في واقعه المؤلم، وليس لهم أثر في إزالة سقمه؟

وهنا حاول الرجل أن يتفهم ثورة قلمه بهدوء، فأمسك به ناظراً نظرة تأمل لورقته الجديدة، مُبتسماً ابتسامة من أيقن حقيقة من هم حوله بعد ما دار الزمن، مُحدثاً قلمه في سكون دافعاً به لكتابة عبارة بديلة، لخطاب بديل أفرحَ نفسه، وأراح قلبه من لغز تلك المعادلة الحياتية التي دوماً ما تحاصره وهي "أصدقاء كثيرون في مُفكرِتي.. ولكن من هو الأحق بنيل هذا اللقب من هؤلاء".

شعر أحمد براحة ولذة طمأنينة لم يشعر بها سالفاً، موقناً أنها لحظة سلام داخلي مع ذاته التي طالما كانت مُغتربة بداخله.

أمسك بقلمه مدوناً أعلى ورقته البيضاء "صديقي العزيـز أنـا، أشعر بكامل أسفي تجاهك، طالما قصرت في حق صـداقتك، وهـا أنا أتيت إليك الآن مصافحاً يدك لأصلح ما أفسدته من قبل، أهـلا بك في عالمي الجديد، صديقي العزيز أنا".

ثورة الأنا

كلما أمسكت ندى بقلمها الثائر أوفقتها ضوضـاء أفكارهـا ؛ فعن أي الموضوعات تكتب ؟ وبأي لغـة تخاطـب قراءهـا ؟ هـي لا تعلم ! !

داعب وجهها الشاب هواء بارد آت من نافـذة غرفتهـا حـاملاً معه روح تغيير مفاجئ وثورات لم تكتمل . .

وعلى غفلة ، نادتها تلك الجريدة الرسمية مترهلـة الصـفحات والأبواب الموضوعة أمامها على منضدتها الغير مستقرة ، فكيف لا تلبي نداءها إذن ؟

فهي محل رزقها الوظيفي وهويتها المجتمعيـة ، وهـي بطاقتهـا الذاتية إذا ما قابلها أحدهم من رجال الشرطة ؟

وهي دنياها الداعية للتبـاهي والفخـر في وجـود طـاقم العائلـة الكريمة ! ، وأما عن مقالاتها عن حواء ومستحضـراتها التجميليـة فهي مثار الجدل على منضدة الأصدقاء والزائرين .

كما أن جريدتها تلك تصل لمرتبة سلاح تهديد لرعاة الدولة والقائمين عليها .

تقضي ساعاتها وأيامها وسنينها تحت تخدير ذلك الروتين المجتمعي الغير مُرضي لإنسانيتها في غالب الأمر ؛ فكثيراً ما خططت للانتقال من هذه الغرفة المجتمعية المنفتحة على كل شيء إلا على هؤلاء ممن يقطنون بيوت الظلام ، ويتنفسون أدخنة الفقر بلا ملل أملاً في وصول أدخنتهم السوداء أعالي سماء طبقات مجتمعهم باختناقهم ؛ فيبعثون اليهم قدراً من أكسجين الحياه الذي احتكرونه منذ أمد بعيد بلا دهشه

تبوء خطة ندى بالفشل ، فكلما رسمت بقلمها دنيا زاهية بألوان الكادحين ، وكلما نظرت الى آلامهم من شرفتها الصحفية ثارت على قلمها وورقها بل وثارت على جريدتها الرسمية تلك متأثرة بانفعالها البشري وسط ذلك الظلم الطبقي ؛ الذي طالما رغبت بإفراد صفحات له .

كثيراً ما ضاقت بها هذه المقالات ذات النكهة السخيفة التي ظلت حبيسة كتابتها لسنوات حصدت خلالها اسم " ندى فهمي " ؛ والذى لمع كنجم فضي بارز في عنان السماء .

مَر ذلك الفيلم التسجيلي لسيرتها الذاتية أمام أعينها وعقلاً ملامساً مشاعرها بلا توقف .

ظلت ندى ساكنة الحركات . . آسفة المزاج . . متمنية نهاية فيلمها بسرعة الضوء لكنه استمر ومضى بكل عناد !

انفتحت النافذة على آخرها وتسابقت موجات الهواء الصارخة بالدخول لمكتب ندى مصاحبة رياح صوتية تحمل أتربة موسمية الموعد أزاحت الجريدة الرسمية من المكتب واضعة إياها بالأسفل بعشوائية كأنها تجهل ما يُكتب على صفحاتها عن الدور الذهبي للحكومات وجاذبية أحمر الشفاه وجدوى الشريطة الملونه للقطط السمينة المدللة !

لعلها المرة الثانية التي أمسكت فيها ندى بقلمها .

هذه المرة لن تكتب عن حواء وجمالها الاصطناعي ، لكنها قررت أن تزف تلك المفاجأة .

ولم تكن تعلم هل هي مُرضية لقرائها ؟ هل ستصبح لائقة مزاجياً لرجال الشرطة والمسؤولين ورعاة البقر والنحاتين وفلاسفة العصر وبائعي الأحذية ؟ !

ليس لدى ندى القدرة على التنبؤ بالقادم حيث اختفت التعابير وذابت التوقعات وتباعدت الصور الذهنية عن مخيلتها

كل ما تبقى في ذهنها المُشتعل أن تكتب وتكتب مدونـةً بمقالهـا المنتظر :

" يحـدث أن تنـتفض ذاتـك فجـأة ؛ مخرجـة أعلـى موجاتهـا الثورية في وقت مزاجه غاضب ، لا تعرف حينها بأي لغة تحاورهـا ؟ فتدخل في دوامة صامتة عجيبة ؛ تفتقد لكل ما هو حيوي ، تحيـا بها للحظـات فـاترة دون وعـي الى أن يـأتي ذلـك الموقـف الحيـاتي اللعين ليدفع بك لثورتك الشـعبية بـلا خجـل ! ، فـإذا بـك تلـبي النداء بلا أقل مقاومة من عقلك فكل ما فيـك يـدق طبـول التمـرد مردداً :

ـ أنا الثائر الحائر سنيناً طويلاً . . أما آن لثورتي أن تستطيعَ !

كلما مررت بتلك التجربة الثائرة أتوقف عن إحداث أي شيء إلا تلك الضوضاء الذهنية التي تحتلني بكل عنف هادئ

لا أدري من أين أتت مهرولة هكذا الى كياني البشري المتواضع ؟ واجتاحتني دون سابق إنذار ! !

عانقت ندى بعينيهـا أعـالي السـقف سـارحةً في الورقـة الـتي أمامها مختتمة ذلك المقال المنتظر بالجريدة مدونة :

" فمن منا يفهم نفسه ، والأكثر جدوى مـن ذلـك مـن يُقَـدِر تلك الذات الإنسانية التي تمتلك من النفحـات الربانيـة الكـثير . . من يمنحها شهادة إعزاز وحب . . من يُمسِك بيـدها ليصـافح بهـا دنيانا المُربكة . . من يقرأ لها قصص الإنجازَ والحلم المقـدس ؟ مـن ؟!

كفت يد ندى عن الكتابة ، وبعثت بمقالها للنشر ؛ باعثـة معـه رضا نفسي دام لسـاعات ، لم تشـعر بـه منـذ بدايـة سـنوات منـذ امتهانها الصحافة .

فلذة الاحساس شيدت لها في الحال قصراً من التحدي والمثابرة من أجل الحفاظ على ذاتها الحرة التي وجدتها أخيراً بعـد أن طالـت رحلتها في التنقيب الحائر .

أحياناً لا يذوب السكر

هـذه المـرة لم أشـعر بمـذاق حبيبـات السـكر الذائبـة بفنجـان قهوتي، ربما من قام بإعداده تَعَمَدَ تقديمه بلا نكهة حلوة!

لعل هذا الفاعل لم يقصد إثارة ضيقي، لعله عجز عـن إعـداد القهوة، وربما لم يتأمل قيمة السـكر وسـيمفونياته صـاحبة المـذاق المتفائل !

تزاحمت الافتراضات ذات الوجاهة المنطقية برأسي إلى أن قاطع صوتها المؤمن حبل أفكاري المُرتَبِكة قائلة:

– أتمنى تكون القهوة عجبتك.

انتفضت عيناي في قلق، وعلـى وجـه السـرعة قمـت بتعـديل جلستي في تأدب، لم تكن وضعية جلوسي تعني لهـا شـيئاً، فهـي طيلة الوقت تعقد صفقة تعايش مع طبقاتي الصوتية دون الالتفـات لغيرها.

فصوتي هو سفيري هناك بعالمها المُظلِم.

هبطت عبارتها المتسائلة على نفسي كأمطار طال انتظارها على نيران حارقة، والعجيب أن نفسي كادت تحرقني بصراخها المـدوي داخلي، صراخها الجاهل للغة الرحمة وأبجديات الرقي !

فكلما علا صوتها المتعجرف. . أنصت إليها. . وكلما أنصت تألمتُ.

فكيف تجرؤ تلك النفس الأمارة على أن تطالبني بلـوم السـيدة على ضياع مذاق حبيبات السكر من الفنجان، وبأي منطق إنسـاني يتعالى دويها عازمةً على إحداث ضجة؛ لإضافة بعض مـن السـكر إلى قهوتي كي تشعر بلذتها الوقتية !!

لسـت أرى أكثـر مـن حـديثها برهانـاً علـى أنانيتهـا وضـآلة حجمها.

خيمت على روحي حالة من الأسى والرغبة العاجلة في التمرد على هذه الـنفس؛ فهـي تطـالبني بـاللوم علـى مـن فقـدت لـذتها البصـرية لسـنوات طويلـة دون أن تشـعر بـالقنوط أو السـخط، وإرهاقها معنوياً لإفقادها لذة تذوق تستغرق نصف سـاعة أو أكثـر أو أقل !!

آن ذاك شعرت بثورة شابة تهزني بـاحتراف، فاسـتجمعت مـا لديَّ من إحساس ونقاء وأخرجت نبرات باسمة قائلة:

– قهوتك رائعة . . أشكرك.

لامس صوتي روحها، فابتسمت بطُهر وأخذت تسرد لـي مـا قاله الأطباء عن عينيها غير المُبصرتين مرتديةً بدلة الراوي الحكـيم، فبدت تتقاسم معي حكايتها بعـدما سـكنت دنيـا الظـلام علـى يـد زوجها شارب الخمور؛ الذي طالما أهانها بالضرب والتجريح، بل وأنهي حياته معها بعد أن اغتال بصرها راحلاً لعالم المتعة رخيصـة الثمن!

تركها سارق بصرها أماً كفيفة لطفلـين لا يملكـان شـيئاً سـوى نوايا كقطرات الندى الصابحة.

كلما حدثتني صوَّبت عينيها المظلمتين إلى كياني الميادي وكأنها تراني حقاً . . جعلتني أستشعر ضياءً قدسيًا لا يمنحه الله إلا لمن أراد حتى وإن مُنح تأشيرة الرحيل من الإبصار وعالمه!

واصلت إنصاتي لحوارها الروحاني بـلا هـوادة إلى أن سـقطت من عيني دمعة مالحة المذاق، عزمت على البقـاء داخـل الفنجـان؛ حينها فقط أيقنت سبب رحيل مذاق السكر من قهوتي.

المائدة

يرتبك الخدم داخل مطبخ القصر . . يذهبون ويجيئون في عجلة من أمرهم . . يتنفسون قلقاً ويلهثون خوفاً . . فها هو موعد إعداد مائدة السلطان يقترب دون الانتهاء من انتاج صنوف الأطباق الشرقية والغربية المعهود وضعها الجبري على المائدة حتى وان عادت كما قُدِمَت دون مساس بها ! !

وفجأة أخذ الخدم طويلهم وقصيرهم وأكثرهم ضخامة وأشدهم نحافة يهرولون في اتجاه واحد متجاهلين أي شيء غير أطباق مائدة السلطان .

واصل خدام القصر مسيرتهم المثيرة للشفقة جيئة وإياباً ما بين المطبخ والمائدة الفاخرة حيناً وما بين المائدة والمطبخ الصادر عنه روائح طهي لا تعرف لغة الطبق الواحد حيناً آخر !

انشغل الجميع في الأطباق ذات الطابع السلطاني التي لم يكن لهم سابق معرفة بمذاقها يوماً ما . . بل لحظة ما .

تعاونت الأيادي البسيطة والعيون المجهدة والقلوب المتعبة للخدم في رفع الأطباق وصفها في تناسق على سطح المائدة الفخمة المزركشة بألوان الثراء . . .

واذ بصوت أجش يصرخ في فضاء القصر قائلاً : أين وليمة الغداء يا رعاع ؟ . . .

هبط صدى ذلك الصوت على أسماع الخدم هبوط الصواعق الحارقة فزادهم حركة وذعر وأثار داخلهم حالة من السخط على طبقتهم المنخفضة اجتماعيا لأبعد حد جعل سلطانهم دوماً يناديهم بالرعاع ! . . .

أخذت عقارب الساعة الكبرى الموضوعة بأعلى حائط القصر . . وبدى شخصاً عريض المنكبين ، ممتلئ البطن ، له حاجبان سميكان وعينان جاحظتان تنظر شذراً للخدم من أمامه . . .

تأهب السلطان للجلوس على المائدة المُنصَرِم إعدادها من قبل خدمه المتكاسلين المقصرين الرعاع كما يصفهم دوماً بأنكى الصفات . . . .

لم يلبث السلطان جالساً يُدخِل الطعام الى فمه وإذ بصوت نباح كلبه المدلل يدنو من أذنيه ، فيُرسم ابتسامة عاجله وينادي على الخدم المتراصين الواقفين الصامتين حول المائدة المهيبة لحمل الكلب المدلل ووضعه يجلس مقابلاً له على مائدة الطعام قائلاً والضحكات تملأ أرجاء قصره المُعَظَم : احملوا كلبي يا رعاع ليتناول قسطه من الأطباق . . ربما أجهده التنزه بحدائق القصر طيلة اليوم .

تسابق الخدم لحمل الكلب المُجهَد طيلة يومه واجلسوه مقابلاً لسيده في وضعية الجلوس ! !

وقف أحد الخدم بالقرب من المائدة ناظراً للأطباق مشتهياً أن يتكرم سيدته بمنحه شيء من رائحتها شديدة الإغراء واقترب الخادم من المائدة والذي يبدو كهلاً مسنناً بقى له ما تبقى من بصره وسمعه وحركته لينفق على من يعول من أسرة وأبناء .

ودون أن يدري الرجل المُسن لا مست يداه المرتعشتان اللتان تملاءهما تجاعيد العمر أحد أطباق المائدة فإذا به يسقط أرضاً .

وسرعان ما سقطت معه كرامة وكهولة الخادم المتضور جوعاً وألماً حيث صرخ السلطان في وجه الخادم ومنحه تأشيرة فورية بالأمر الغاضب للخروج من القصر بلا عودة !

وفي ذلك الحين تحديداً وأثناء استعداد السلطان لتناول غداءه ، أتت ذبابه صغيرة وظلت ملاصقة لأنف كلب صاحبنا ربما أرادت مغازلة ذلك الكلب المدلل .

يأتي يميناً تأتي يميناً معه . . يذهب يساراً تذهب يساراً معه ! ، الى أن فقد الكلب الوديع أعصابه وتقلبت حالته المزاجية .

وإذا به يصدم الذبابة اللعينة بدلاله الزائد عن الحد ، واذا بمائدة السلطان تنقلب رأساً على عقب دون أن يتذوق منها شيئاً .

الحلم لا يورَث !

أمسك بسكينه قارعاً كل الأجراس الغاضبة مـن روح الحيـاة، متمتماً بعبارات غير مفهومة ترفع رايات الثورة على كل ما حل بـه خلال رحلته الزمنية بكوكبه الأرضي العتيق.

التوت يده الحاملة للسكين بكل تمرد على تقليدية الحدث؛ فها هي تقطع لحومًا وخضـروات وخبـزًا علـى هـذه القطعـة الرخاميـة اللعينة بمطبخه الضاج بالأضواء والأطباق وأدوات بالية وروائـح لا تعرف لغة التوحيد!

نظر الطباخ العابس للسكين نظرة شذر مريبـة عميقـة المعنـى، وكأن سكينه تفقه تلك النظرة بالوراثة.

وتمضي ثوانٍ وقتية وتعتدل السكين في يـد جـورج الطبـاخ دون التواء آخر؛ خشيةً منها أن يلقيها فوراً من النافذة، فهو لا طاقـة بـه لتمرد أدوات مطبخه؛ الذي طالما تمرد هو ذاتـه منـذ أن كـان والـده إدوارد الطباخ الأكثر فناً بين البلدان.

كان جورج يضجر كثيراً كلما رأى أباه بكواليس الطبخ يمسك بدليل الوصفات ويقلب فيها، ثم يرسم تلك الابتسامة اللطيفة على وجهه المُجَعَد، ويأخذ نفسًا متفائلاً بالقادم ليخلق أولى أكلاته الجهنمية دون تحفظ !

زارت ملامح ادوارد الأب خيال جورج في هذه الأثناء الممطرة حاملة الثلوج البيضاء المتساقطة التي يراها كصورة متحركة من نافذة مطبخه الأثري، وإذ بإحدى القطع الثلجية مستديرة الشكل تلامس أرض مطبخه تزامناً مع تلك الدموع غير المنتظمة التي تصرخ بالألم الدفين الذي يعاني منه جورج منذ اعتقاله خلف أسوار مطبخ أبيه.

التحمت دموع جورج بالأمطار الثلجية عازفة ألحانًا موسيقية تنتمى لآلة الكمان الراقية، التي طالما غابت عن نفسه منذ أن مانع ادوارد الأب أن يصبح جورج عازفاً للكمان الذى أحبها وأحبته بجنون عاقل خطف أسماع كل من أنصت لتغريدهما الثنائي.

تنهد الطباخ الشاب تنهيدة حسرة على حلمه غير مكتمل التحقق، وإذا بكيانه يهرول مسرعاً للإمساك بأحد طواجن الطهي الفخمة التي ورثها عن أبيه، مثلما ورث مطبخه وبدلته التي بدت

فضفاضة أكثر من اللازم، ربما لكونها لا تلائمه كما كانت تلائم والده ادوارد.

وبسرعة مدهشة سمع جورج أصوات جماعية تتعالى في فضاء مطبخه بلا انتظام، وإذا بوجهه تعلوه علامات الغضب وشفتيه تمتعضان وحاجبيه يمسكان ببعضهما وكأنهما التقيا من بعد فراق!

ازدادت أنفاسه في مزاج يميل الى الاشمئزاز والسخط، وبدأ في تقليب قطع اللحم على النار؛ مضيفاً إليها مكسبات طعم ولونًا وتوابل حارة لا تعرف غير اللذة لغة رقصت روائح اللحم المطهي بأروقة المطبخ، بل تخطت تلك الحواجز وانتقلت للخارج بلا تردد، حينها توقفت تلك الأصوات الجماهيرية عن التعالي والصراخ.. إنها أصوات زبائن جورج الذين ورثهم تلقائياً، كما ورث كل شيء عن الأب الطباخ الأكثر رواجاً بين بلدان العالم!

انتهي جورج من طهي اللحم بعد أن لاحت رائحته في الأفق، وفجأة، وأثناء رحلة يده المسرعة لنقل قطع اللحم الشهية من الطاجن إلى الأطباق، إذا بصورة ادوارد الطباخ تحادثه، وكأن قاع الطاجن تحول لمرآة تغفل ما بها من دهون وبقايا طعام ومكسبات صناعية.

لم يكن الأمر بجديد على جورج، فدائماً ما تأتيه روح إدوارد عقب كل وصفة لتوافيه ببعض النصائح والتوجيهات استكمالاً لورق الوصية وصندوق الميراث الممتد، وتحديداً في تلك اللحظة الزمنية توقفت سماء البلدة عن المطر، وأشرقت الشمس بشيء من الترقب والأمل على خلفية موسيقية يتغنى على أوتارها مجموعة من الشباب أصحاب وجوه سمراء مبهجة، وضحكات جماعية تدعو للغد أن يأتي بفن واحتراف لا بوراثة ظالمة، اخترقت أصواتهم آذان جورج بلا هدنة وقتية.. ارتجف الطباخ الشاب، واحمرت وجنتاه، وازداد قلبه شباباً وروحه إصراراً.. هنا قاطع جورج حديث والده الروحي المتجسد أمامه بقاع الطاجن، بل ووضع فوقه غطاءه المزركش قائلاً بصوت مليء بالثورة: "الحلم لا يورث فلتذهب النسخ المكررة إلى الجحيم".. خلع بدلته بحيوية عجيبة احتلته فجأة، تاركاً مطبخ إدوارد وأدواته وتوابله وطواجنه وزبائنه بلا رجعة، مانحاً الأمر لقدمه لأن تخطو في اتجاه تلك الموسيقى الشبابية السمراء.. فهواء الدنيا يملأ رئتيه والحلم يهتف داخله بأنه القائد القادم لتلك الفرقة الغنائية دون شك !!

ديالا و أوجاز

بعينين جفتا عن البكـاء، وقلـب متهتـك، وجسـد مُتَخشـب مُلقى على أرض ذات رمال صحراوية شمسـها لا تـرحم ولا تفقـه ثقافة الدفء، صرخ "أوجاز" الرجل الأسود ذو الوجه المُجَعَد.

"ديالا" الصغرى تَجهَر بنحيبها.. تحتضن كتف أبيها وتـئن.. الألم لا يرحم.. وطعنات الجوع لا تجيد قراءة الأعمار!

أدار "أوجاز" ظهره للشمس قَبَّل رأس ديالا بكل صبر.

اغتالته قسوة المجاعة.. شوهت جسـده النحيـل دون تحفـظ! أبعدته أميالاً عن حقول الحياة.

شمس "مقديشيو" عنيدة.. لهيبها يشـتعل طرديـاً مـع ارتفـاع تلك الأجساد المتلاصقة المتراصة في موت!

حوصـر "أوجـاز" و"ديـالا" بـذوي البيـادات العسـكرية ممـن يتخفون وراء ملابس رمادية اللون برائحة الحروب!

هربت الشمس ولاح الغروب بالأفق . . عانقت الرمال أقدام الجياع .

صرخات "ديالا" لم تعد تعزف لحنها منفردة . . الجميع صرخ في فضاء "مقديشيو" . . الجميع تألم . . الجميع أجهشه البكاء . . الجميع مات جوعاً وعطشاً وشعوراً .

"ألا تستحق بلادنا الحياة" ؟ موجات من التساؤل تجتاح كيان "أوجاز" الأب مريدةً الجواب الأعلى يقيناً .

طلقات الرصاص تغطى الرؤوس . . ضياع الغلال يغمر الأراضي فيضانات ربانية وجفاف لا ينتهي . . عصبيات قبلية وحروب سوداء تتصدر المشهد .

تزاحمت الأجوبة برأس "أوجاز" . . لم يتقن عقله الاختيار . . لم يُلهمه وجدانه بهذا المبرر صاحب السيادة الإجرامية وراء المجاعة ؟

الشمس تهرب دون جواب . . الغروب لاح . . الأفق أسدل ستائره الليلية دون جواب . . الخيام المتزاحمة والجثث والبيادات تتواجد دون جواب .

عويل "ديالا" يتوقف. . شفتاها تضربان عن النطق. . نبضات قلبها تقف حداداً على المشهد.

"أوجاز" ينظر لابنته في ذهـول. . إحساس شـديد باحتماليـة مفارقة وجهها ورائحتها ونبراتها الصوتية. . لمعت عيناهـا في تـألق بادلها "أوجاز" الشعور ذاته بل أكثر. . تأمل تلـك اللمعـة في لهفـة أبوية. . فها هي "ديالا" الصغيرة تقرع طبول الرحيل عـن إقليمهـا الأكثر فقراً بمقديشيو البائسة. . ملوحة بكفهـا الأسمـر الصـغير في وجه الجميع ممن فقدوا إنسانيتهم. . ممـن تسـببوا في كتابـة رسـائل دموية الحبر همجية العنـوان أسـكنتها بـأرض جائعـة لا تعـرف إلا الموت.

هؤلاء لا يأكلون الشوكلاتة !

أقسم بإنسانيتي المُتعَبة أن ما رأيته ليس حُلماً أو خيال !

يا له من مشهد ! !

لم تفقد عيناي لمعتها منذ أن وقعت عليه .

يا له من مشهد ! !

احتضرت سعادتي في حضرته ، وتاهت أوجه الإحسان في صحراء جوعه وألمه !

بمقعد أثري عتيق يحتضن الأرض بحديقة مُفرحة زاهية الطقوس ، يتجمهر أطفال الشرق والغرب ، بجنة مكانية تطير بلا أجنحة ، يلهون في محبة وسلام ، تندفع طاقاتهم الطفولية في انسجام ووئام ، وتتلامس أيديهم في حرية ، وتضع ألسنتهم بصمتها في القلوب !

بتلك اللحظة البيضاء طارت روحي برفقة عيناي إلى ذلك المقعد المُميز ؛ الذى بات كعبة مشعة بالخير تغزو الأرجاء .

بمقعد الحديقة وجدتهما يجلسان في صمت يعلوه الوجوم ، طفلان ينظران للغد في ترقب ، وينظر اليهما الغد في تجاهل !

ما إن تدنو من جلستهم المؤسفة إلا وتشم رائحة الفقر ، وما إن تنصت لصحراء قولهم إلا وتلاحقك أبواق الألم ، ويحاصرك الإيزاء في إصرار عنيد يطرز من المأساة ثوباً مُحال أن يرتديه طفل !

وجوههم متشققة ، نظراتهم جافة ، وتعبيراتها تصرخ بالجوع ، والعزلة ، وكأنها ترسل خطابات من إنسانية لمن يهمه الأمر !

تساؤلات تملأ سماء دنياهم الباكية ، وآهات تشكل سياطاً يروض الجسد الصغير ؛ فتأخذه الى حيث الرقص بالإجبار !

شتان ما بين رقصة فراشة بشرفتنا الحالمة وتلك التي يؤديها الطائر الجريح في عرض ما قبل الموت !

أكاد أنزف ندماً على وقوفي مُكبل الأيـدي معصـوب الإرادة ، والضمير .

ولكن مهلاً ، يبدو أن الأمل حزم أمتعته المُعطَرة ، وقـدم نحـو الطفلين الجالسين في بهجة لا مثيل لها !

لم تكن البهجة هنا شعوراً ، لم تكن خـواطر مـن نـور يشـرد إليها خيالي ، وأسطرها بمفكرتـي ، ويبقـى لهـا إمـا المبيـت بمـدن الذاكرة ، أو الذهاب الى الجحيم !

أقترب الأمل كثيراً من مجلسهم الطفلين البائسـين المُعلـق علـى أكتافهما علل الوطن ، وشظايا الحروب !

كم هو أمل عادل أن يأتي طفل لمعاونة طفل !

أقسم بإنسانيتي أن ما رأيته أشبع روحي إشراقاً للحظات !

إنه طفل ذو بشرة بيضاء ، وملامح غربية خطا عـدة خطـوات باتجاه مقعـدهما التـاريخي ، لكنـه غـير قـادر علـى الجـري مـا زال صغيراً؛ روحه تثب الى أعلى طبقة سماوية ، وعيناه تفيض بالدمع الممزوج بأغاني الإنسانية الفَرحة .

يقفز للأعلى ليُمسك بروحه ، ويشاركها التحليق الخلوق ، ويبادلها الابتسامة العفوية .

يقفز في براءة ، وطفولة لم تنتهكها سموم الهواء ، وأقراص الهلوسة ، وغازات القنابل ، وانشطارات الذرة ، ومواثيق الخداع، وفصول العنصرية !

أمطرت نظرته الحانية خيراً ، وزقزقة كناري ، وزهور برية ؛ أنطقتهم غناء يجول بأعماقهم الساكنة كمداً ، وقهراً !

دنا الطفل من مجلسهم أكثر مما كان عليه

وأبتعد عن أباه الغربي ؛ الذى يرافقه نزهته تلك ، وأخرج من أحد جيوب معطفه الثمين قطعة لذيذة من الشوكلاتة .

ذلك السحر القاسي ؛ الذى وقفت أمامه حيل العرافه وضاربى الودع !

إنه لأمر عجيب حقاً تفسيره ذلك العشق الذى يكنه الأطفال للشوكلاتة ، فهي تماماً مادتهم الخام للسعادة ، وأحد أبواب جنة الدنيا أرضية النشأة !

لوح الطفل غربي الملامح لطفلي الشرق ذي العينين الدامعتين بقطعة الشوكلاتة اللذيذة ، وبضحكته الرائقة التي تعالت في الأصداء ؛ حاملة رسائل شعور ملائكي ، نظرا الطفلان في حمية وشوق لصديقهما الغربي .

هو لم ينظر الى جنسيتهما كي يحدد بأي طريقة يتعامل ؟!

لعلها المرة الأولى التي رأيت خلالها بسمتهما تحيط بوجهيهما في تحدى لغيوم اليوم ؛ باعثة بنداءاتها الطفولية الصابحة لأن تترفق بغدهم القريب !

تحادثت أعين الأطفال في سماحة وجلاء .

نظرا الطفلان لصديقهم الغربي في ود ولطف ونظر لهم الصديق في مساواة عمرية .

ذابت الآلام في حضرة البراءة .

ارتفعت أعناق الأطفال بإصرار لا يهمد ؛ رغبة منهم في التقاط الشوكلاتة المهداة .

فهي حقيقة لا يرونها إلا بأيدي الأطفال المدللين الأثرياء !

سارع الطفلان للإمساك بها ، تلك الهدية التي غابت عنها رائحة التلوث ودون مقدمات ، شعر الأب الغربي بابتعاد صغيره عنه ، فانتفض مُسرعاً للحاق به ، وبلحظات إمساكه بابنه وتلويح الطفل بالهدية المنشودة سقطت الشوكلاتة في بركة الماء المقابلة لوجهة الطفل ووالده .

طأطأ الطفلان رأسيهما في خنوع ، ضاقت الدنيا بعينيهما الزيتونيتين ، غابت خيوط التفاؤل الصريح

وانتفت فجأة أدلة الاعتراف بآدميتهما !

سقطت شوكلاتة النجاة ، وسقطت معها أدمع طفلين أوجعتهما شيخوخة الوطن !

رحلت المادة الخام للسعادة دون أن تصافح شفاههم في لذة !

وأصدر الحدث المفاجئ حُكمه أن يظل هؤلاء ممن لا يأكلون الشوكلاتة .

صرخة شهرية !

لم تمنح الشمس سر دفئها لليلى ذلك اليوم . . .

انتفضت من نومها مذعورة ، تسابقت أنفاسها في الصعود ، وبات عرقها يتصبب في جنون . . .

الوجع يزداد ، والنبض في ارتباك ، والجسد يأن في انتظام . . .

عيناها رحمات تائهة في زحام الدموع هكذا بدت ليلى شريدة الذهن ، فاقدة الشهية للحياة ، متألمة بمرارة ، لا ترغب في غير الشفاء والراحة موطناً . . .

بشموخ أنثوى ، وخجل يعلوه ألم يتكاثر تحاول ليلى الوقوف على قدميها . . .

تشرع في المُضي قدماً لتحيا يومها دون إشعار آدم ما بها من ألم كاد أن يلتهمها ! . .

آدم الزوج والرفيق ؛ الذى تفضل أن يشاركها كل شيء إلا ألمها ! . .

ذلك الألم الدامي البائس ؛ الذى يأتيها على هيئة زائر شـهري دون تغيب أو رحمة بجسدها المُنهك ، وروحها الرقيقة !

سمعت ليلى صوت خطوات آدم في وضـوح ، علـى الأرجـح هو قادم من غرفة المكتب ليوقظها .

تقف ليلى في ثبات ، تمسـح دمعهـا في عجلـة ، وتضـع يـدها المرتعشة على معدتها المُحترقة ألماً ، وتمضى بخطوات متثاقلة تقترب إلى الزحف بقدميها منها إلى المشي بخطى متكاسلة .

يراها آدم فيلقى عليها تحية الصباح ، ويبتسـم لهـا في اعتيـاد ، لكن صباحها هذا اليوم ليس كصباحه !

إنه نهار يختصر الألم ؛ الذى تخشى الأنثى التظاهر به !

تتمالك ليلى ذاتهـا ، وترسـم علـى وجههـا ابتسـامة عريضـة مفتعلة ، فكيانها الأنثوي يعتصر وجعاً ، وحزناً

كانت بسمتها مفتعلة ، لكنها مرت على آدم مرور الكرام ، لم يشعر بما بها من غرابة وضجر !

هرولت ليلـى الى غرفـة فارغـة ، أوصـدت خلفهـا البـاب في احتضار .

نظرت لأرجاء غرفتها ، لم تجد شيئاً سوى قطتها تأكل بعض الطعام في أحد الجوانب الضيقة .

شعرت ليلى بضيق أهلكها حد العذاب ، ألهبتها عظامها وجعاً ، وشاخت قدرتها على الاحتمال .

الألم ينهش ما يقابله كوحش لا يرحم ، ولا يفقه الشعور !

أخذت تتلوى من الوجع ، ازدادت شعوراً أن الموت يقترب ، ورغم ذلك لم يقدم آدم لاكتشاف الأمر بدافع الشعور أو بهاجس القلق !

مرارة الألم تخرج على هيئة دمعات وعرق لا يجيد الوقف

صرخت ليلى بأعلى صوتها ، صرخت وكأنها ترى شبحاً أسود القلب والهيئة .

لم تُسمع صرختها أذن آدم رغم قوتها ، لم يلتفت إليها رغم احتمالها الألم لأجله !

تعالت صرخاتها في الفضاء دون مجيب .

ربما لم تجد أي صدى سوى مواء تلك القطة ، التي كلما تعالت صرخات ليلى ، تعالى مواءها وكأن الألم تلبسها ، وجعلها تعانى ما تتكبده ليلى من مرارة أنثوية تخجل من البوح بها !

صرخة جامدة أسكنتها غرفة العزلة كلما أتاها زائرها الشهري العنيد ؛الذى فور رحيله تُكمل مشوارها في العطاء

وليس عجباً تبدل صراخ ليلى الى ضحكات بعد ذلك

كل العجب حقاً في عدم إنصات آدم لصراخها الشهري ! !

وعد

في غرفتها المتهالكة . . جالست وعد وحدتها

علـى أريكتهـا الأثريـة المتواضـعة . . تنظـر شـاردةً إلى أرض الغرفة ، فإذا بكردانهـا الـذهبى الـثمين يسـقط أرضـاً ، وإذا بوعـد تحـاول جاهـدة التقاطـه ؛ متجاهلـة كهولتهـا العمريـة وشـيخوخة جسدها .

ذهبـت ذكريـات وعـد إلى حيـث كانـت تسـكن مـع والـدها " أيـوب " ، وأمهـا " كـوثر " في منـزلهم القـديم بالسـيدة زينـب ؛ والذى كان يشاركهم سكنه عضو أصيل ، اعتبرته وعد ضيف ثقيل غير مرغوب في وجوده لسنوات طويلة . . إنه الفقر !

ظلت ذكريات وعد تطاردها .

وفجأة تخلت وعد عن رغبتها في الحصول على كردانها الذهبي . . بعد أن تذكرت شبح الفقر الذى طالما رأته متجسـداً في والـدها أيوب ؛ الذى ظل معظم أيامه الحياتية شـبه عـاري ؛ لعـدم قدرتـه

على شراء زى يستره ويحميه مـن ضـحكات جيرانـه واسـتهزاءات أطفالهم . . .

ووجه أمها كوثر . . تلك الأم المتفانية في كل شـيء مـن أجـل بيتها وطفلتيها ؛ الذى كافأها القدر بأخذ إحداهما ، والإبقاء علـى الأخرى . . .

استردت وعد قوتها ووقفت تنظر من شباك غرفتهـا المتواضـع . . وعندها رأت فتاة في عمر الزهور تتجه لأحـد المحـال التجاريـة القريبة لها . . .

أخذت وعد نفس عميق لم تستطع استعادته للحظـات قليلـة . . شعرت خلالها باختناق لحظـي ، ربمـا لأن وجـه الفتـاة العـابرة ذكرها بوجهها عندما كانت في سن المراهقة ، بعـدما قـررت قهـر الفقر الذى غزا حياتها بالهرب للبحث عن فرصة عمل . . .

ولكن كيف تجد فرصة عمل ، وهي لم تحصل على أى شـهادة أو درجة علمية ؟! . . .

فالفقر جعلها أمية، وحرمها من فرصتها في التعليم وكذلك العمل ذو الوجاهة الاجتماعية . . .

ظلت وعد واقفة أمام نافذة شباكها . . ناظرة إلى لافتة مدون عليها اسم محام شاب ؛ لتطرق تلك النظرة باب ذكرياتها مرة أخرى فإذا بها تشاهد نفسها متجهة لباب مكتب محامى شاب شهير طلبت منه وعد أن يتركها تعمل عنده بالمكتب في أعمال النظافة فهي غير قادرة على تدبر أمرها في ظل ظروف حياتها القاسية . . . .

وافق المحامى بعد أن قامت وعد بتقديم كل ما لديها من إغراءات جسدية ممكنة، وتنهيدات أنثوية ،وبكاء بأحبال صوتية فاتنة ! . .

وحينها أيقن المحامي الشهير أن دور وعد لن يتوقف على أعمال نظافة مكتبة فحسب، لكنه آمن أنه سوف يكون لوعد وظائف أخرى ! . .

ومرت الأيام آخذة بيد الشهور ووعد تعمل عاملة نظافة ، وسكرتيرة ، وزوجة غير شرعية للمحامي الشهير ! . . .

وإذا بها في يوم، تطلب منه طلب وجده المحامي غريب بعض الشيء، إذ فوجئ بوعد تطلب منه مساعدته في أن تدرس ما فاتها من مراحل التعليم .

ورغم دهشة المحامي من هذا الطلب إلا أنه وافق، فكيف لا ؟ وهو من يحصل من وعد على كل ما يريد وأينما يريد ! !

وبالفعل حقق المحامي لوعد أمنيتها الى أن التحقت بكلية الحقوق، ودرست بها وتدربت بمكتبه الشهير .

إلى أن جاء اليوم الذى واجهت فيه وعد المحامي بعلاقتهما ؛ متسائلة بغضب " ما الذى يمنعه من الزواج بها ما دامت نالت قسطها من الوجاهة الاجتماعية وأصبحت محامية لها وزنها بالسوق القانوني " ؟ !

إلا أن المحامي الشهير، ورغم كل شيء رفض الاعتراف بوعد كزوجة شرعية أمام المجتمع، واكتفي بها امرأته ؛ التي تقوم بكل الأدوار داخل حياته لكن في إطار " سرى " .

عاودت وعد جلوسها على أريكتها البالية ممسكة بورقة وقلم موضوعين على طاولتها الصغيرة ؛ لتتذكر حينها كيف كانت تخطط وبكل حرفية طريقة الخلاص من هذا المحامي الشاب والذى أصبح عقبة في طريقها .

عندها قامت وعد بدعوته لحفل خاص في شقتها للاحتفال بعلاقتهما السرية . . وإذا بها تقتله طعناً بالسكين عدة طعنات نافذة بالقلب .

لم تتوقف طاقة الشر لدى وعد عند ارتكاب الجريمة، بل قامت بوضع جثمان المحامي في أكياس ودفنته بعيداً .

ذات يوم، كتبت الصحف عن اختفاء المحامي الشهير وبحثت الشرطة الحادث وتقصت التحقيقات ، إلا أن كافة الوسائل البحثية لم تصل لنتيجة مجدية .

وشيئاً فشيئاً أصبحت وعد مديرة مكتب المحامي وأصبحت تدير كل شيء، فالمحامي المقتول لم تكن له أسرة ترثه ولم يكن له صديق يتابع أخباره، فهو عاش وحيداً غريباً وقتل غدراً على يد أقرب شخص له ! !

كبر اسم وعد القانوني وأصبح لامعاً كالبرق.

قاطعت وعد شريط ذكرياتها فجأة، وقامت ونظرت الى المـرآة في وسط غرفتها القديمة، فإذا بها ترى وجهاً مشوهاً، طالما حلمـت أن تخفي تشوهه تجاعيد الزمن.

وحينها بدلاً مـن أن تتأمـل وعـد ملامـح وجههـا في مرأتهـا، تأملت ملامح ذلك الشاب الذى قام بإلقاء ماء النـار علـى وجههـا عقب خروجها من جلستها بالمحكمة ، عندما ترافعـت ضـد والـده المغلوب على أمره لصالح أحد الأثرياء.

ومنذ ذلك الحين لم يعد أمام الصحف حديث سوى ما أصاب وعد بوجهه.

قررت وعد الانعزال عن كل شيء والبعد عـن كافـة الأضـواء التي كانت تبهرها كثيراً من قبل.

واتجهت لملازمة تلك الغرفة العتيقة طيلة حياتها الباقية هرباً من عيون الجماهير.

وبينما كانت وعد شاردة في ذكرياتها الأليمة، إذا بها تسمع صوت طرق الباب.

توجهت وعد لفتح الباب، وحينها وجدت الطارق صبى الجزار المقيم بالأسفل يسألها إن كانت في حاجة إلى شيء ؟

إلا أن وعد قدمت له الشكر على سؤاله وهنا لم يلفت نظر الصبى كلمات وعد بقدر ما لفت نظره الذهب الذى ترتديه في يدها ورقبتها . . فهو ذهب لم يشاهده الصبى من قبل !

وفي صباح اليوم التالي عثر جيران وعد على جثة مقطعة الأجزاء ملقاة من أعلى، إنها جثة وعد . . تلك المرأة العجوز المليئة بالذكريات القاتلة . . قتلها صبى الجزار بعدما لمع ذهبها في عيونه.

هجم عليها ليلاً وتدافع معها بالقرب من شرفتها . . قطع جسدها لأجزاء حتى ينال ذهبها النادر لم تأخذه بها شفقة كهولتها، ولا تشوه وجهها العجوز . . ولا وحدتها المحزنة.

قرائي المُزعجين : شكراً !

دارت عجلات العربة بسرعة خيالية المنطق . . أدخلتها في حلقات من السجال اللا أبجدي الترتيب . . ربما حاول السائق إزالة قشرتنا الأرضية لاجتياح "جينس" القياسية دون مقدمات مدهشة !

اغتال آدم الطريق ببصره مُلتقطاً صورا فائقة السرعات لملامح الأمكنة وجوانب طرقات السفر .

لامست سرعة العربة ذاكرة صاحبنا فأخذته لذات السرعة التي يلتقط بها قطع الشوكلاتة المطعمة بالفستق اللذيذ، بمناسباته الرسمية التي لا يخرج إليها بدون بدلته القاتمة غير الداعية للعفوية . . ذلك الزي الرسمي المصطنع ذائع الصيت بالمدن !

شرد آدم قليلاً من الزمن . . لمعت عيناه العسليتان، وارتخت عضلات وجهه في حرية وبدأت يده في مصافحة مؤخرة رأسه متأملاً لحظاته الفاصلة التي تنقله من قريته مترامية الأطراف، ساكنة الأصداء، إلى مدينة تضج بكل ما فيها، ويختلط فيها الزيت بالماء في أمور عدة !

هرولت صورة الريف إلى مخيلة آدم . . فها هي أصوات الفلاحين تتعالى بدفء ريفي، وألحان ماكينات الري، ودراما حنين الأرض لموعد سقياها، وهمسات النرجس الشادية، وتآلف أزهار الفل والقطن.

وفجأة قاطع هذا الهدوء ضوضاء سيارات لا تعرف الهدنة، وهمهمات أناس متعددي الجنسيات، وأدخنة متفرقة لا ترحم حواس قاطني المدينة، وهؤلاء المارون بسرعة البرق وكأن لديهم موعد مع كبار رواد الفضاء !، وتلاصق الأكتاف بشيء من الاستفزاز غير المقصود، وانفعالات بشرية مصطنعة تدعو للابتسام.

تشابكت أنفاس آدم بأدخنة سجائر ذلك الرجل الوقور صاحب النظارة السوداء والملامح الحادة الموحية بالكبرياء والشهرة، المجاور له بكواليس عربة السفر.

عدَّل آدم وضعية جلوسه في تأدب ناظراً للرجل هامساً بقوله "معذرة سيدي . . أدخنة السجائر لا أحتملها".

تمادى الرجل في إطلاق صواريخه الدخانية دون الالتفات لآدم . . تمادى بانسجام لا يلائم الموقف !

التصقت الأدخنة بـأنف صـاحبنا مـرة أخـرى . . عـلا صـوته وضجر . . لكن دون جدوى .

فالرجل غارق في عزلة لا تسمع ولا تبصـر شـيئاً غـير الروايـة التي يمسك بها كمن يمسك بهويته الذاتية .

تأمل آدم الرواية في يد الرجل كمن ينظر لطفـل حـديث المـيلاد مبهوراً بعينيه وقدميه وأنفه !

فإذا به يقرأ سطورا متزاحمة أسرته دون وعى قائلة :

– أقسم أنا الروائـي الحـائز علـى جـائزة الدولـة في الآداب أن الهدوء لم يكن سر إبداعي يوماً ما بل لحظة ما . . أرغب في تجديـد قسمي أن الشرفات المستكينة ، والتنزه بين دوائر العشب الأخضـر ، والسـحب البيضـاء الكثيفـة ، والثلـوج علـى الجـانبين ، وقهـوتي الساكنة بمكتبي المرتب لم تكن ملهمتي في الأدب .

تـابع آدم قـراءة السـطور وكأنـه يتناولهـا بشـراهة لا تعـرف التكرار .

وهنا اصطدمت عيناه بتساؤل وضعه كاتب السطور قائلاً :

– وإلا فما الفرق بين وجودنا الدنيوي ورحلتنا بجنة الخلد؟! . . فكل المبدعين كانوا أحياء يرزقون، جميعهم ذاق مرارة الواقع، معظمهم شربوا مشروبات روحية ذات مذاق حياتي لعين. . منهم من جلس خلف قضبان الدنيا التي شيدها الفقر والحاجة والضوضاء والفساد. . جلسوا وراءها ملياً إلى أن قرروا أن يكونوا مبدعين ليحطموها بلا رحمة. . فالإبداع بحد ذاته رحمة، لكنها ليست للجميع !

واصل آدم قراءته في شوق، في مواجهة تلك العبارات التي دونها كاتب الراوية والتي قال بها :

– أعلم أنكم جميعاً تشعرون بكذبي الصريح ! . . هذا ليس عيباً . . فقد عودناكم نحن معشر الأدباء أن الأدب ما هو إلا مزيج من الكذب والخيال. . لكنى سأعلمكم شيئاً . . ولأذهب إلى الشيطان بعدها . . الضوضاء سر إبداعي . . فأنا الروائي الحائز على جائزة الدولة أذهب وأجئ معكم بكواليس العامة . . أرغب في مزيد من الضوضاء كي أمدكم بالإبداع. . فهل تسمحون لي بالشكر على الضوضاء ؟

أنهي آدم قراءة السطور مختتماً إياها بقراءة اسم الأديب الكبير الأكثر شهرة ببلاده وغيرها من البلدان . . فقرأ اسم : أنور كمال .

لكن صاحبنا أخذ يتمتم ويهمهم بعبارات ناقمة غير شاعرة بمصداقية ما وجده، مدوناً براوية الرجل صاحب النظارة السوداء .

شعر أنه افتراء أدباء ودعاية لكسب العامة والخاصة ! !

توقفت عربة السفر . . قاطع صوت العجلات تساؤلات آدم غير المصدقة لأن يغتال تواضع الحال أديب كـ"كمال" لحد خوضه تجارب العامة ومعاناتهم .

نظر الرجل صاحب النظارة السوداء لآدم باسم الثغر مبادله التحية قائلاً :

معذرة . . تشرفت بمجالستك

رد آدم :

– وأنا أيضاً . . آدم مراد وأنت ؟

ابتسم الرجل قائلاً :

– أنور كمال ! !

باللامسافة رأيته

مُحال أن تحتمل مساء غامض يُبقيك ساهراً بلا دافع !

لا أود الكذب ، لا أفضل اعتناقه ديناً كغيرى

فربما هناك دافع من سهرتي هذا المساء

ليتني أضع يدى على هذا الدافع

أشعر بحالة من الإحباط المقصود

لم أنا ساهرة ؟

لم أعادي قمر ليلتي ؟

ولم أشكو نفسي لنفسي ؟ !

الدوافع بمنطقيتها وجنونها أرهقتني زحاماً

وفجأة لامست ذاكرتي شيئاً مادياً

ربما كان وجه هذا الطفل هو الدافع

رأيته على أول طريقي بالبوسنة

وجهه داع للتفاؤل من بعيد ..

بعد اقترابه ..

اختلفت الصورة ، وتبدل الوجه ..

هناك على بعد أمتار ..

وجدته باسماً ..

صاحب معنويات شاهقة تفوق ارتفاع قمة إفرست ..

من بعيد شاهدته من هؤلاء الأطفـال مـالكي مفـاتيح السـعادة والنجاح ..

على أول طريقي اعتقد أنه حالم صغير يشدو كل صباح ..

دون أن يحمل هموم الغد ..

على بعد هذه الأمتار ..

تخيلته مدللاً ! ! ..

أحسسته يقفز للأعلى ويتمايل على جانبي الطريـق مـن فـرط السعادة ..

هناك ..

رأيته يرتدى ألواناً طفولية داعية للبهجة ..

وفجأة ..

تاهت الأمتار في دنيا الاقتراب ..

وأصبحت مجاورة للطفل بالطريق ..

لم يلتفت الي ..

لم تجذبه هيئتي ، ولا لغتي ، ولا تعبيرات وجهي الصارخة بالدهشة "ما هذا" ؟ "هل من أبجديات العقل أن أراه على بعد أمتار بصورة أخرى حطمت ملامحها المسافة " ؟ ! ..

شعرت وكأن أحدهم من صانعي الحرب مارس موهبته السوداء في خداعي بصرياً ؛ آملاً في أن يمتد ويصير فكرياً بالتبعية ..

توقفت قارعة أجراس النداء العلني ..

بكل ما لدي من صوت وإحساس ..

راقت آذان الطفل لندائي ..

فإذا به ينظر إلي بشيء من الرهبة ..

وأن ترهب طفل هو بحد ذاته أمر لا إنساني المذهب .

فاستجمعت لباقتي التي ربيتها على قواعد الحب والاحترام ودنيا المساواة وخلافها من قيم تعلمت كيف أحيا بها ولها منذ انضمامي لمنظمة "اليونيسيف" المعاونة للطفل بأرجاء واقعنا المزدحم .

بأمر اليونيسيف الإنساني خاطبت الطفل ، تحدثنا لمدة من الوقت لا أذكر كم كانت ؟

خانتني ذاكرتي حينها

وقد أكون أنا من أعطيتها ميعاداً آخر ولم أذهب !

شغلني الطفل الذي بقربه

لم أجده طفلاً أبداً

وجدته كهلاً في جلباب صغير

وله عصا يتوكأ عليها

علمت منه أن طفولته شاخت بفعل الحرب

ودماء القتلى ، وسواد الأدخنة ، وبرودة المشاعر

واقتلاع الجذور ، وضياع الحنين

جميعها جعلته يبدو شيخاً في عمر طفل لا يفقه طلاسم غده

رغم القهر بالبوسنة

أخبرني أنه أخذ عصا جده ليسعى في الأرض أملاً

إذا فحقاً ما رأيت

تلك الـروح المبهجـة الـتي استشـعرت بوجودهـا بكيانـه قبـل اقترابي منه

لم أكن أتخيل ولم تكن خدع وضعها أعداء السلام في طريقي

انها عصا التحدي التي أستند عليها ليجد واقع غير الواقع

واقع يأتي بالشمس رغماً عنها

" البوسنة تحلم بعودتي ملاكاً يصلح أعمال الشياطين "

عبارته الأخيرة ، قالها لي ومضى

بأقدامه الثابتة نحو الأمام

لا أعلم الى أين ذهب ؟

ولا كيف سيعود ؟

وما المهم في أن أعرف أنا

الأكثر جدوى أنه يعرف طريقه جيداً بحجم يقينه بأجساد ووجوه القتلى من ذويه بالبوسنة !

أشباح الأديب

ستائر الغرفة تهتز في ارتباك . . والليل يتحدث لصاحبنا في غموض . . أذناه كادتا أن تتآكلا من هول الخوف !

أصوات متقطعة تجوب المكان ، وصفير شيطاني يحتل المشهد ، وصاحبنا يلملم أطرافه في توجس يعلوه الحذر ، ويجلس القرفصاء مُريداً نشر السكينة في نفسه !

دقات القلب غير قابلة للهدنة ، وتزايدها يصاحب ذلك العرق الذي يتصبب في لا منطقية مُربكة ! !

ومشاهد الأشباح لا تُغادر غرفته . . الأرواح تحتضن مقعده ؛ مُشيرة بأحد أصابعها الهلامية إلى مكتبه المكدس بالأوراق والقصص ؛ مُمسكة بمتن نصه الأدبي الجديد في وضوح يراه وحده دون الغير ؛ فخيال الأديب يصنع المزيد من اللامعقول ! وربما يسانده في ذلك التخيل لياليه الطويلة . . فالليل مجنون بما يكفي لإثارة الظنون .

مـى

كفاك عبثاً برغباتي أسـكنتني مـدن القلـق بعاصـمتك المخيفـة أجريت على لساني الآهات أذقتني مرارة الكؤوس ! !

هكذا ابتهلت " مي " خطابها الثاني عشر التي عمـدت كتابتـه بـدمع وألم لا ينفصـلان" روحـي اغتربـت ، ، ووجهـي هجرتـه البسمة " تابعت مي خطابها بأنين شاحب لا يرى في الغد شموس !

" أتذكر أنوثتي المدللة ، ، وضحكتي الرائقـة ، ، وحضـوري الآخاذ ، ، وهمسي اللاذع ، ، وحناني المستقيم " جميعهم هجروني هجروني بلا دهش بلا منطق بلا رحمة ! !

جاوز الليل ثلثه و " مي " تكتب بالحرف كلاماً و بالدمع كلام آخر ترسم بالدمع كلاماً لا يفقهه الحرف وبالحرف كلام لا يتوقـف أمامه الدمع !

كفت " مي " عن الكتابة في ذهول سـرقت مـن الـزمن سـاعة تلمست خلالها معطفه الأسود

ذاكرتها لم تتقن النسيان معطفه يحتل بصرها يتوه ملمسه بدنيا الذكريات الدافئة . . .

معطفه شاحب كوجهها ! أسود كعينيها الدامعتين خشن كما مشاعرها وقت الرحيل . . .

تفوح من المعطف روائح باريس الراقية وقهوتهما الصباحية وحديثهما الداع للضحك تارة وللحزن تارة أخرى . . .

غاصت يدها اليمنى بأحد بيوت معطفه المحمل بالشتاء وأيامه ولياليه فائقة السكون . . .

فإذا بوردة " بنفسج " ضاع عطرها المقدس منذ أن قطنت المعطف تذوب بين أصابعها مسافرة معها الى حيث يعزف " الكمان " مشيعاً البهجة بالمكان دون ريب . . .

صافحت الابتسامة وجهها أذاقتها حلاوة الوقت ركنت " مي " الى طابق الماضي رحل وجعها لدقائق خاطفة ثم حمل نفسه بقوة وعاد ! . .

عاد مجالساً قلمها وخطابها فدونت باكية " . .

ليت قلبي رحل عنى يوم رحيلك ، ليت طبيبك انتمـى لهـؤلاء من قاطني مدينة الصم والبكم

" ليتك لم تَمُت ، وليتني ما حييت دونك " .

أيها الألم أنا كافرة بك !

على غير عادتها

ضربت " هدى " بطقوسها الصباحية عرض الحائط

أفاقت على استحياء ؛ مُدَللة وجهها بأنوثة تُخبئ مقاومة حديدية تجهل لغات الصدأ .

اليوم . . قررت " هدى " السخرية من وحشة السرطان ، وذُعر آلامه .

اليوم . . أقسمت بنهارها الفريد هذا أن ترقى ببصرها الى الشفاء ، وأن تتندر على جبروته الهُلامي ، وسخافته التي انصرف عنها الشعور !

الجسد يحمل أثقالاً ، والنفس خاصمتها العافية لأعوام طويلة؛ فقدت خلالها " هدى " الاطمئنان لكل شئ ؛ الى أن ضاقت بالحياة وضاقت الحياة بها .

توضأت إرادتها بماء تلك النملة المُثابرة ؛ التي لم تخذلها يوماً في الزيارة ، ربما كانت على قدر عال من الوفاء الذى لم تعهده مع بشري في حياتها الرمادية تلك ؛ التي و إن زاد سوادها على البياض فيها ؛ إلا أنها تظل رمادية .

ربما لتشبثها ببعض الأمل ، وإن كانت آيته " نملة " !

أخذت " هدى " تتلوى من طعنات المرض بغرابة سلوكية تمتلك من الحكمة الكثير ؛ فكلما أستولى عليها الألم صرخت في وجهه بالضحكات .

وما إن همست لقلبها بواعث الخوف إلا واندمجت في غنائها شاديةً :

" ذلك القلب لا ريب فيه

يُقيم صلواته بوادي الحب

ويفلح في غناء الحزن

ويوقن بالعطاء لا المَن !

وأخذت تدندن في اختلاف وبهاء

قائلة :

ذلك القلب لا ريب فيه

أضاء بهديه الظُلمات

وأخرج مائه الثمرات

وعكف على الخشوع والبِر "

يُريحها غناء القلب ؛ تجد فيه من اللذة والمتاع ما يُغريها لإعادته مرة ومرات ؛ إبان إقامة السرطان " الجبرية " في جسدها المُنهَك !

ثم يعاود المُحتَل هجومه القاسي ليُكلفها مشقة يلقاها شهداء الحروب و أبناء المأساة الأبدية من فقر وعراء وموت يدق أبواب الإنسان بلا تحيه ولا سلام !

لا تطمئن " هدى " إلى قراءة نفسها بالمرآة !

ففي كل مرة تقف فيها للقاء نفسها ومصافحة وجهها أمام المرآه تجدُ أنثى أخرى غير تلك التي تعرفها حق المعرفة !

وكأنهما يشتركان في الروح وحسب ، أما الكيان المادي فبات هاجساً أو طيفاً عبر في حلم الأمس ، واليوم بات كابوساً يرافق الإزعاج . .

وتشتاق الفتاة لأن تُنطق المرآه قولاً ، كما تنطق انعكاسا مصوراً كي تجيبها " متى تنتهي مأساة المرء " ، عندما تربطه عشرة حلوه مع تقاطيع وجهه و ملامح جسده الى أن يأتي يوم عجيب الهيئة يجد المرء نفسه شخصاً آخر ، غريب الملمح والبناء !

ويرى حركاته ليست بحركاته

وسكناته لم تعد سكناته

وضحكته تبدلت أو غابت !

وتجاعيد المرض تحاصره في إصرار لا يُطاق . .

أسدلت " هدى " ستائر الدهشة على ما تراه في المرآة من واقع صنعه المرض و رفيقه الألم

أسدلتها ؛ ودقت بقلبها و كيانها طبول الإرادة ممسكة بذرات التراب المُكدسة على سطح وجهها بالمرآة ؛ تلك التي أهملت تنظيفها بفضل ما جلبه لها الألم من عجز و تكبيل غير عادل !

رسمت بيديها تلك العبارات التي كانت حافزاً من ذهب ومـن فضة كلما راودها وحش السرطان الدامي :

أيها الألم

كيف حالك ؟!

اسمح لي أن أُعلمك سراً لا يعلمه الا أنت

" أنا حقاً كافرة بك " !

أتظن أن الكفر بالوجود ؟

أم تعلم عن أي شيء أتحدث ؟!

وسواء كنت تعلم أو لا تعلم

سأخبرك كلماتي ، وآهاتي ؛ التي لا تُجيد الرحمة

فهي أصيبت بداء التقليد السام

روحي انفعلت بك ؛ فأصبحت قاسية مثلك !

فلا تجادلني في أن أكون رحيمة عطوفه معك

وكيف هذا وأنت من ألهبتني بسياط المرض

بات جسدي مُتهالكاً ؛ وانطلقت روحي الى عنان سماء ربي مودعةَ الغد ؛ ومُخرجة لسانها في إذلال كرهته فيها . .

وبحق ذلك ألعن تلك اللحظات الخشنة ؛ التي تجتاحنا دون استئذان؛ كصواريخ عابرة للقارات ! ؛ تُشعلنا بكل ما أوتت من حرارة ؛ تطفئ ما بنا من بسمات ! ؛ وتُدخلنا في غيبوبة دماغية لا إفاقة منها إلا بزوال الألم و أصدقائه ! !

سندريلا

أتاني الصباح مهرولاً مُقبلاً رأسي وجبهتي السمراء، حاضناً عينيَّ وملامحي ذات الميلاد المصري والإقامة الإنجليزية.

"ياله من صباح عجيب.. هكذا كنت أتمتم وأغمغم في هلوسه، لماذا رحل الليل بهذه السرعة المُربكة؟ هل أرادني الله أن أشهد حدثاً مقدساً؟! أم أن عباقرة التنمية البشرية ألقوا بكل ما لديهم من حبوب للتفاؤل في الهواء فأزاحت قوتها سواد الليل وعجلت لنا بنور الصباح؟!

زقزقة العصافير أين أنت من ملكوت شرفتي هذا الصباح؟ كنت أتساءل في توجس وخيفة لا ينفصلان!

وكيف لنور الصبح أن يسطع دون نداءات عصافيري حنطية اللون؟

حسناً يكفي نحيباً على تغيبها اليوم، فلم تكن زقزقتها مصدر سعادتي الوحيد، بل كانت تلك السعادة الكاملة يختصرها مشهد جمالي آخر في الشرفة المقابلة لشرفتي.

كم أعشق تصويب بصرى إلى هناك . . كم أتوق لرؤيتك كل صباح سندريلا الشرق .

كم هي ملائكية الروح ! كلما رأيتها ترتشف فنجانها الصباحى أيقنت أن القهوة هي من بحاجة إليها لا العكس ! فسعاد هي المذاق، والقهوة حبوب مطحونة لا تجيد فلسفة الجمال الخاطف ! !

ها هي أجراس اليقظة بداخلي تدفعني دفعاً إلى الشرفة قبل أي عمل آخر، فأي عمل هذا الذى ينافس أولويات رؤيتك يا سعاد ؟ وأي مهام تلك التي تجعلني قاطن مدن التأخر عنك ؟ تلك المدن الداعية للبؤس والجالبة للعويل !

ربما لوجهي عليَّ حق في أن أجعله مصافحاً للماء صباحاً، وربما لجسدي عليَّ حق في أن أدخل معه في رحلة رياضية قصيرة بشوارع لندن اللامعة، لكنى لا أطيق الاحتمال أن أؤدى أشياء ذكرها لا قيمة له بالنظر إلى وقوفي بشرفتي واستهلال يومي بابتسامتك الرائقة التي ورغم كل شيء لا زالت تزداد اتساعاً !

والآن ها هي شرفتك ذائعة الصيت بقلبي وعالمي الإنساني، ها هي أحد بيوت الجنة، ها هي نافذة الأنوثة الكاملة، بل ها هي نبراس البصر والبصيرة.

وها أنا أقف بالشرفة عازماً على إلقاء السلام، وها أنا أضحك من داخلي، وأداعب روحي المتلهفة شوقاً لرؤية سعاد سندريلا عالمي.

ولكن ما الأمر؟

إنها لم تظهر بعد، تُرى ماذا جرى؟!

أفقدت لندن سحرها الأخاذ الذى يأسرني أنا على وجه الخصوص؟!.. فمنذ عشرة أعوام وأنا أرى وجهها السينمائي من شرفتي، أراه دون شاشة عرض ولا حراسات، ولا جماهير تتزاحم على مصافحتها!

منذ عشر سنوات وأنا أراها تسير وحيدة.. منذ عشر سنوات وأنا أقرأ الحزن بعينيها الأخاذتين.. منذ عشر سنوات وأنا لم أشهد ببصري زيارة أحدهم لها.. دوماً تتكرر هذه المشاهد بلا ملل، أراها بشرفتها تحتسى فنجانها برقى لا يستهان به.. وتتأمل

السحب الكثيفة وتتمتم بعبـارات لا أفهمهـا . . أراهـا تقـف تنظـر خلفها وبجانبها فلا تجد أحد . . وتنظر أمامها فتراني ابتسم لها .

فترد إليَّ الابتسامة فقط كي لا تؤذيني معنوياً . . ثم أمارس أنا مهنتي في تصنع الانشغال بتصفح صحيفة الجارديـان حتـى أمنحهـا تأشيرة الأمان لتفقد ذاتها في ارتياح ولذة . . فتمسك حينهـا بمرآتهـا وتنظر لوجهها بخوف لا يهمد، وإذا بـى أجـد دموعهـا تتـدخل في حلقات متتابعة من السجال !

أدرك حينهـا أن أحزانهـا أعلنـت عليهـا الحـرب، وأن سـعاد أفجعتهـا تغـيرات وجههـا ، وأراهـا تـتلمس جسـدها بيـديها المرتعشتين، فإذا بها تصاب بعدم اتزان لتحسسـها جسـد لم تعهـد عليه من قبل ! !

أمر يقودك إلى الجنون أن تجد أنك أصبحت مغتربـاً عـن ذاتـك التي لطالما عاهدتها !

أمر مُحال احتماله على بشري أن يجد نفسه منبوذاً بعد أن كـان رمزاً للمحبة !

لا أصدق أنني رأيتها تبكى ولم أجفف دمعها !

ولا أصدق أننى رأيتها تلازم شرفتها طويلاً ولم أنتزع منها سر الاختفاء.

ولكن ماذا علي أن أفعل، وكلما رأيتها وعزمت على الحديث وجدتها تختبئ خلف مرآتها، وتذرف دمعاً، وتشكو لسحب لندن قساوة البشر قريبهم وبعيدهم !!

ولكنى الآن أقسم بك أيها النور الإلهي المسمى بالصباح أننى سأحدثها للمرة الأولى مذ جاورتها السكن.

سأعتذر إليها نيابة عن الجميع، سأغمرها بالأحاديث الروحانية، سأشدو لها كل ما سبق وكانت تشدو به في حدائقها الفنية، سأصف لها أرقى ثيابها.. سأعتذر لها نيابة عن الأهل، عن الأصدقاء، بل عن الوطن بأسره !!

الآن يا سعاد سأجفف دمعك، وأعيد إليك مهرك !

لم تخرج سعاد إلى الآن.. لا تزال شرفتها مُظلمة.. لا تزال العصافير متغيبة.. ولا أزال أنا عازما على الاعتذار.

سأغمض عينيَّ للحظات أتخيل حينها مشهد لقائنا سوياً.. سأغمضهما لأرى بخيالي أولاً ماذا يمكنني أن أقول ؟! أغمضت

عيني واستمدت روحي طاقتها في الحضور، وأخذت أصرخ " اخرجي يا سعاد. . اخرجي يا سعاد"، لكن بلا جدوى !

ودون مقدمات رأيت تجمهراً كبيراً بالأسفل "ما كل هؤلاء الناس، لم أر مشهداً كهذا طيلة إقامتي هنا".

وبينما تصطدم عيناي بشرفة سعاد، فإذا بها منفتحة على آخرها ولكن أين سعاد ؟ أين شمس صباحى الدافئة ؟ !

رأيتها بالأسفل حيث يتجمع سكان البلدة غارقة في بركة دماء. . رأيتها جثة هامدة يحاصرها أفراد الأمن الإنجليزي، وأبواق الإذاعة، وكاميرات التليفزيون، رأيتها مكبلة بسكرات الموت المفاجئ !

ورأيتني أبكى بهيستريا تفتقد التعقل والحكمة. . ووسط كواليس مرعبة، وجدتها تصوب بصرها إلى الشرفة، وكأنها تتساءل كيف لهذا أن يحدث ؟

لا أعلم كيف سقطت سعاد. . هل أسقطها صمتي عن الاعتذار ؟ ! أم أسقطها صمتها عن الحديث أم من فعل ذلك ؟

تمنيت أن يكون ما رأيته خيالا ، وأن تكون شُرفتها كاذبة ، وأقسمت أن أغمض عيني ولا أفتحهما خوفاً وأملاً .

هنا يرقد العجوز الغامض

وقف الفتى الأسمر صاحب الشعر المُجعد مذهولاً أمام أحد القبور ؛ مُحملقاً فيها بلا وعي واضعاً يده النحيفة على رأسه غير مُصدقاً غرابة ما رآه مُدَوناً على هذا القبر ؛ الذي استوقفه أثناء زيارته لقبر والده ووالدته اللذان لاقيا حَتفِهما إثر حريق مروع التهم بيتهم الصغير ذات ليلة داكنة السواد .

ولعله من حسن حظ الفتى الأسمر وشقيقته الكبرى خروجهما للتنزه تلك الليلة وإلا كانا دُفِنا بجانب والديهما .

ارتفع حاجبي الفتى الأسمر صاحب الجسم النحيل متراً الى أعلى !

ليخرج وجهه بتعبيرات عفوية تصرخ بالدهشة من كل ناحية ، فالفتى الأسمر إعتاد على رؤية عبارة واحدة وحيدة دائمة التكرار على كل مقبرة وهي " هنا يرقد فلان بن فلان " .

وعلى حين غفلة ، استوقفت نظرات الفتى مقبرة فارهة البناء، مزركشة الألوان ، فخمة التعمير ، مكتوب فوقها " هنا يرقد العجوز الغامض " ...

لم يُحَرِكْ الفتى ساكناً ، ووقف يحملق في اسم صاحب المقبرة، لعله مخطيء في قراءة ما رآه ! ! ...

وأخذت أنفاسه تتزايد بغير انتظام ، ودقاته القلبية تعزف أوتاراً من الغناء الحائر ؛ الذي لا يعرف هل هو داخل حلم أم هو بقلب الواقع ؟ ! ...

وبعد أن دقت أجراس اليقين أعين الفتى الأسمر ، وأكدت له أن ما يراه حقيقي ، أخذ لسان حاله يتساءل في إصرار وإلحاح : ...

ـ ماذا ؟ العجوز الغامض ! ! ما هذا الاسم المُبهَم ؟ ...

ورويداً رويداً بدأت الستائر الليلية في السدول ، وحينها شعر الفتى الأسمر بقشعريرة مفاجئة جعلته يرتعد خوفاً من هول مساء تلك الليلة الغريبة ، وذلك الحدث الأكثر غرابة ! ...

...

غادر الفتى الهزيل القبور متوجهاً الى بيته مُسرعا للاطمئنان على شقيقته الكبرى والوحيدة .

طرق الفتى الباب ، وأنفاسه تكاد تُزهق من شدة الاضطراب، والخوف وكأن شخص ما يلاحقه .

وهنا علم الفتى الأسمر أن شقيقته الكبرى "نورا" لم تعود بعد من عملها بأحد الفنادق ، فوضع يده في أحد جيوب معطفه ، وإذ به يُخرج مفتاح البيت وإذ به يفتحه .

سرعان ما دخل الفتى بيته مُغلقاً الباب خلفه بكل حزم قائلاً وهو مُغمَض العينين ، مُستكين القلب :

ـ الحمد لله ، تخلصت من كابوس لا محل له من الإعراب !

راح الفتى يجلس بالقرب من مكتب شقيقته الكبرى "نورا" ، وأخذ دون تركيز يُقَلب فيما هو متواجد أمامه على منضدة المكتب الغير مُرَتبة كالعادة .

فنورا فتاة شاهقة الطول ، منكوشة الشعر ، غير حسنة الهندام، عاشقة لشيئين لا ثالث لهما قراءة الحوادث وقصها من صفحات الجرائد القديمة .

وإجادة طبخ البيتزا على الطريقة الإيطالية ! !

وفجأة ، وقعت أعين الفتى الأسمر على واحدة من مُلصقات الحوادث التي تضعها "نورا" على منضدتها المُشبعة بالمذكرات ، والأقلام ، والصور ، وأوراق الحلوى ؛ التي التهمتها "نورا" وقت تفقدها للحوادث قديمة الأجل .

مَدَ الفتى صاحب الشعر المُجَعَد يداه النحيفتان للإمساك بأحد هذه المُلصقات ، فإذ بها تحمل عنوان مُثير ، كتبته الصحيفة بالبنط الأسود العريض الداكن ؛ رغبةً منها في جذب حواس القاريء بكل ما أوتت من قوة كتابية مؤثرة ! !

أخذ الفتى الأسمر ينظر بشغف زائد للسطور التي تقابل عيناه خلال رحلته الاستكشافية لأحداث القصة التي داعب عنوانها المُثير حاسته البصرية بلا تردد .

فإذا به يقرأ تلك السطور :

ـ على خلفية موسيقية كان يحيا يوسف موسى الغجري ، كانت الموسيقى بالنسبة له كل شيء ولا شيء سواها .

ينام على ألحان موسيقية ، ويستيقظ على أوتار غنائية ، ربما لم يكن يوسف يفعل شيء سوى سماع الموسيقى .

لم يكن الرجل من محبي الموسيقى الهادئة ، رقيقة الأوتار ، فهو من أكثر مدمني الموسيقى الصاخبة ، ولاسيما تلك الموسيقى التي ترطم بلغات أوروبية غير واضحة المفهوم للمعظم من أبناء مجتمعه البسيط التقليدي .

عجب العُجاب في الأمر أن يوسف الغجري لم يكن مُتَعَلِماً من الأساس ، فهو أمي تعليماً وثقافة ! !

إلا أنه كان عاشقاً للموسيقى الصاخبة التي لا يفهم رسالتها ، ولا يتدبر معناها .

وذات يوم عاد موسى من أحد رحلاته في عالم الصيد الأكثر مُتعه بالنسبة له من العمل والإنتاج ، فالرجل لم يكن عاملاً يوماً في حياته ؛ فهو يعيش على تسول زوجته الطعام ، والخبز من الجيران الذين يعطونها الوجبات شفقةً على حالها البائس ، فهي في نظر الجميع زوجة بغير زوج بالمعنى المعترف به

فهو زوج عديم الفائدة . . سكير . . لا يعمل . . يعيش لمتعته الذاتية وحسب .

وذات ليلة سمع موسى أبنائه الثلاثة يقرأون دروسهم الدينية بصوت مرتفع .

فانتفض متوجهاً لغرفتهم ليأمرهم بإخفاض صوتهم اللعين ، فالموسيقى الصاخبة لا تحلو مادام هناك أصوات بجانبها ، وإن كانت أصوات أبنائه الصغار .

وأثناء اقترابه من غرفة أبنائه الثلاثة ، سمعهم يتلون آيات من القرآن الكريم ، فزاد غضبه ، واستشاط غيظاً ، وفتح باب غرفتهم مسرعاً وصرخ في وجه الصغار بصوته الجهوري قائلاً :

ـ توقفوا عما ترتلونه أيها الملاعين الصغار . . ألا تروني أستمع لأرقى فنون الكلام ؟؟

توقف الأطفال عن ترتيل ، وجلسوا يرتعدون خوفاً من وجه أبيهم العبوس ، وصوته الجهوري .

تكرر هذا الموقف عدة مرات داخل كيان هـذه الأسـرة المكونـة من خمسة أفراد ، أربعة منهم يعشقون الكلام الروحاني ، وشـخص واحد لا يعترف بوجود الأديان كلها ، وينظر الى الأديان علـى أنهـا بدعة وأن الموت خرافة ولا يستحق كل هذا التخوف من لقائه

عاشت تلك الأسرة في اضـطراب وتفكـك لا تُحسـد عليـه ، فالأب وحده بغرفته يشرب أكواباً من الخمـر ويعربـد لـيلاً ونهـاراً على خلفية موسيقته الأوروبية الصاخبة التي لا يعي ماذا تقول ؟ !

وبعد أن كَبُر الأبناء الثلاثة ، وصل أبيهم لسن الهرم ولاتـزال اعتقاداتـه كمـاهي ولايـزال كلمـا حدثـه شـخص عـن وجـود الله والاعتراف بالموت ، زاد في عناده الأبدي

دائماً كان موسى يكرر لأبنائه أنهم ليسوا أوفيـاء لـه وأنـه لـو كان لديه ثروة كبيرة لكتبها باسم كلبه " ريكس " المرافق لـه في أي مكان .

قائلاً لهم بصوت تملئه موجات غاضبة :

ـ ريكس أكثر وفاءاً لي من زوجتي ، وأبنائي ، وهو يشاركني كل شيء حتى شُرب الخمر . . فمن منكم يشاركني أي شيء ؟؟

وذات ليلة ممطرة خرج موسى وأخذ برفقته كلبه المخلص ريكس ، وحينها حاولت الزوجة والأبناء منعه من الخروج ؛ ناظرين لعمره فهو كهل مُسن ، والى مرضه فهو مُصاب بمرض القلب الدامي .

لم يُنصت اليهم موسى مُتجاهلاً توسلاتهم وبكاءهم

خرج موسى متحدياً أبنائه وزوجته . . ضارباً بالاعتراف بالموت عرض الحائط . . كارهاً لكل الأشخاص والكائنات فيما عدا ريكس الذي ظن أن لديه حنان يغمره عند الحاجه اليه أكثر من أقرب الناس له !

توجه موسى بجواره ريكس الى العيش وسط القبور ؛ مُعلناً رغبته في رؤية ذلك الشخص الوهمي المعروف في دنيا أبنائه وزوجته بالموت .

احتلت الدهشة ملامح وجوه زوار القبور متسائلين عن ماهية هذا الشخص وسبب تواجده للعيش هناك وهو على قيد الحياة قائلين :

ـ إنه لشخص مجنون لامحالة !

ذات يوم أفاق ريكس جائعاً ، ووسط معيشة القبور والتربة والأجواء المُربكة لم يجد أمامه سوى مالكه ورفيقه " موسى الغجري "

رحل موسى عن عالم الأحياء الذي ظن أنه لم يرحل يوما عنه متحدياً ذلك بتوجهه للعيش وسط القبور المفزعة

مات الرجل العجوز على يد ريكس رفيق دربه الوحيد !! الذي أعطاه الأمان أكثر من أبنائه فلذة كبده ودمه .

أبي لا تتركني معهم !

تتزاحم الأصوات في رأسه ، وتتعالى الى أن تصبح ضجيجاً مدوياً ؛ فيجد عمر نفسه عاجزاً عن منح أذنيه الأمر بعدم الاستماع إليها ، والإنصات لصراخها المُخيف !

وإذ بوجدانه يتشابك مع تلك الموجات الصوتية ؛ التي اصرت على الدخول معه في حلقة قتالية أقرب الى الحرب منها الى المنافسة والعناد .

وفجأة سارع عمر بوضع يديه الصغيرتين على أذنيه محاولاً إيقاف تلك الأصوات المُضطربة التي لا تعرف للسكينةِ لغة ! !

وبعد مناوشات وجدانية قاطنة نفس عمر المسكينة ، رأى والده واقفاً أمامه ؛ متحدثاً إليه بدون بدون انقطاع راسماً على وجهه الأبوي الحنون حزناً يعلوه خوفاً وحسره ، فالأب كان يحلم أن يكون أباً لعمر الذي رآه في مُخَيلته ، وليس من رآه في عين الواقع ! !

فالأب تمنى أن يُرزَق طفلاً سليماً من كل شر ، ولم يكن يعلم أن الأمنية ستتحقق على شاكلة غير محمودة العواقب ؛ مُتَمثلَة في طفل يسمع أصوات البشر بنكهة الغابات !

ولا يدرك ماذا يقولون ؟ ! ، فنبراتهم البشرية ، ومفرداتهم اللغوية ؛ تُتَرجَم اليه أصواتاً حيوانيه غير مفهومة المعنى .

فإذا به يتوه في عالم الغابات غير شاعراً بما يدور حوله من حديث ، وإحساس ، وسلوك .

ولا يملك الأب التَعس شيئاً سوى أن يقف مُكَبل الإرادة أمام عمر كلما انتابته نوبة الصِراخ المُستَرسَل من هول ما يسمع من تلك الكائنات الساكنة أذنيه وإدراكه .

كذلك الحال بالنسبة لعمر الطفل الأبكم ، معصوب التصرف؛ الذي تمتلىء عيناه بالدموع كلما نظر لأباه وكأن دموعه العاجزة تستنجد به لانتشاله من ذلك العالم المُبهَم مُردَدة بكل صمت " أبي . . لا تتركني معهم " !

هل يركع القمر؟

جلست نور تتأمل ذلك الكائن النوراني الماسي بـلا توقـف . . أخذت ترسل إليه رسائل دعاء تحمل تيجان فضية ترتفـع في سمـاء وقت السحر تعلو تارة فتقترب منه وتهبط أخرى مقتربة من جيرانه تلك النجوم الساهرة .

وحينها عادت نور برأسها للوراء قليلًـا ، فـإذا بـذكرى حلـوة الأثر تعانقها بكل حب وتشدو في أذنيها أنبـل الأناشـيد العطريـة ، فتبتسم وتنظر لقمرها الوحيد ؛ متذكرة حبيبها الغائب الذي لطالمـا كان يمنحها إشراقا وضياء لا يعرف للنهاية سبيلا .

فهو الحبيب والأقرب لنبض قلبها الشاب هو وحـده مـن تـرى في حضوره حنة الأرض بارزة ، وهو وحده أيضًا من ترى في غيابـه القمر وحيداً شارداً متخذاً موقعه الليلـي هنـاك بـالقرب مـن نجـوم مبعثرة في بحر سمائها ، فنور تحب القمر لكنها تحب حبيبها أكثر ! .

هي تجالسه لتستقبل منه تلك الرسـائل السـاهرة الـذي يحملـها القمـــر متلـــهفًا إيصـــالها لهـــا ، تـــرى نـــور إمضـــاء حبيبها . . تلمسه . . تتنفس رائحة عطر الرسائل ؛ تشعر بـه يمنحهـا تلك الهدايا البريدية لكنها لا تراه !

يخبرها قمرها بحال حبيبها . . كيـف يحيـا ؟ وكيـف يتـنفس ؟ وكيف يراها في دنيا الغياب، عشقت نور قمرهـا ليلًـا فهـي قاطنـة دنيانا ليلًا فقط . . وأما نهارها فلا تملـك خلالـه سـوى أن تخـوض رحلتها لملء عينيهـا بـدفء ذكرياتهـا معـه بـدءًا مـن قلـم ورقـة، ورسالة غرام تائهة، عروس جميلة صـغيرة، وأحمـر شـفاة عـالق في كيانها الأنثوي . . .

أحست بضحكته تخترق مسـامعها، أوقعتهـا في بئـر الحـيرة ؛ فهي ليست تلك الأنثى صاحبة الملامـح الغربيـة ، والملابـس المـثيرة التي تؤثر الأبصار، لكنها إحداهن اللواتى اتخذن مـن الحيـاة لحنًـا ومنهجًا فلماذا تحاصرها ضحكاته؟ ولم تغازلها عيونه العسلية بـلا هوادة أو قانون . . .

هكذا شردت نور قليلًا ممسكة بقلمها ورأسها مطلة من نافذتها المبحرة على سطح قمرها الماسي مدونة أولى سطورها الحالمة الباكيـة لتبعث بها إلى القمر ليرسلها لحبيبهـا الغائـب قائلـة بصـوت تمـلأه الدموع .

" حبـيبي المسـافر . . أفتقـدك كـثيرًا ، لا أفتقـد روحـك فهـي بالفعل داخلي ، ولا أفتقد ابتسامتك فهاهي أمـامي الآن . . كمـا لا أفتقد حضورك فأنت تشاركني كل لحظـة ، كـل مـا في الأمـر أنـني أفتقد زمانا يجمع بيننا يضحكنا ويبكينا . . يحدثنا ويناجينا " .

توقفت نور عن كتابتها لبرهة زمنية ناظرة للقمر راجية إيـاه أن يهبط من مكانه العالي في السماء ويقترب من يديها ليتسلم رسالتها الحائرة . . . ! ولكن هل يركع القمر ؟ .

رحلة الى المأساة !

لا تكفيني لغات العالم الأول كي أصف ما يحياه خيالي من عبارات مُرصعة بعذب الحديث و تشبيهات تتكاثر على حافة الحرف و أوصاف بروح الجنة و أخرى تطالع ما يجرى بدنيا الجحيم !

صِدقاً " لا تكفيني لغات العالم الأول " . . .

كلما ودعتني الشمس بمواقيت الغروب اشتبكت خاطرتي بتقلبات العالم المؤقت !

و أوجدتني حيث أريد

يا سادة الدنيا . . . لا ترضيني لغاتكم المحدودة أحرفها من هباء !

تبتلعها ذرات الهواء السابحة وغروري لا يطيق سذاجة التراكيب وخيالي يلتصق بورد التميز أليس بشرفتكم جديد ؟!!

بعالمي الأول يحدث الكثير !

متاعب تطل من النافذة !ومراهقون يركضون خلف أنثى الوهم ! !وسيدة أربعينية تزحف على وجعها ؛ و تُقبل رصيف تائه في تضاريس الوطن . . " أرى الجماجم مُكدسة بمنحنيات الطرق ! أكم من أعداء أغاروا على قلب الوطن و أكم من أبواق دنست آذاننا !

و أكم من ظلال حسبناها انعاكاساً لنا وكانت خيال ! !

بعالمي الأول تخرج الحروف عن السياق ، ترفض الانصياع لتقليدية فعلتها الكتابية !

حروفي متمردة تشق كلماتها ، وتثور على فكرة الأمس لتأتى بفكرة الغد !

" حروفي متمردة و أنا المثابر أحفر في صخر الزمان بلا توقف

يا إلهي كم تبقى من مرارة العيش كي أسكبها في دمعاتي ؟!

" ذات مرة احتضنت مأساة أحدهم من هؤلاء البؤساء المُكَبلة أجسادهم بأطواق حديدية تسمى " المرض " !

كان يتلوى من الألم . . يلدغه المرض من حين لحين كأفعى سامة لا تفقه علوم الرحمة !

كان يتقلب في مضجعه المُزمن كمن يتلحف بقرص الشمس الحارق !

كان يغفو ويفيق على صيحات مفزعة !

ذلك الآدمي البالغ من العمر خمسة أعوام فقيرة ، كان يصرخ في فضائه الواسع ولا من مجيب ! !

لم أجد سوى تلك الحروف المُبعثرة تلامس أرضه الجدباء وترتدى أزياءها الأدبية عازمة على وصف مأساته في حديث لم يخلو من المواساة ؛ جاورت جلستي سيدة أقامت بمدن الغياب منذ أعوام طويلة صافحها عنصر المفاجأة السيئة ؛ مانحاً إياها أولى هداياه البغيضة ، وكانت ملازمتها للفراش لربع قرن من الزمان فقدت خلاله القدرة على الكلام وانفرط من بين يدها عقد التواصل مع من حولها فمكثت لزمن صامت لا تفعل شيئاً سوى أن تتنفس ليس أملاً في الحياة !

بل حفاظاً على البقاء ! !

وما بين أن نحيا و أن نبقى طرقاً متباعدة !

لم أجد حينها سوى حروفي المبعثرة تقفز أعلى ورقتي البيضاء

لتسجل بكائها على مرأى الجميع !!

هذان الصغيران لديهما نظرة حادة التصقت عيناي بصـورتهما العنيدة ، جسدهما الهزيل يقوى على تحمل كل قهر !

في الحروب يا عزيزي تجد الصغير كبيراً . فلا تعجب من نظـرة طفل دهست دبابات الحرب شقيقه الأصغر أقـوى مـن تلـك الـتي يحتل ملامح حاكم تُدللـه الحاشية .

هذان الصغيران لا يعرفان بكاء الأعين فقط القلـوب هـي مـن تتولى مهام النحيب !

يتيممـان بأتربـة الحـروب والقلـق في الـنفس عـادة و أمانهمـا " السلام " !!

طبيب تلك البلدة يهيم على وجهه ! المرض تفشى في النفوس

باخرة الحاكم تكتظ بالدواء المُراد ! ورجاله يلقون بها في النهـر ويظل المرضى يتساءلون " أليس لنا دواء من القهر " ؟؟

ورجال الدولة يتمنعون عن الرد . .

سـارة .. ابنـة الحـرب!

وقالت له " أحبك بعدد لعنات بلادي للمُحتَل "

لا زالت سارة تُعلنها لحبيبهـا في سـاحات الحـرب المتمـردة !! وقف الفتى في منتصف الطريق بين قلبه و جثث الضحايا ! ؛ أخـذ يُلملم خطابات الهوى ويبعثها لمن غزت قلبه دون سابق علـم " ! إنها " سارة " ؛ تلك الأنثى التي لا تؤمن برجال العوالم الورقية !! ويُعجبها ذلك المجنون الذي يصرخ في وجه دباباتهم " : أحبها " و لا يُبالي " ! في الحرب لكل شيء نكهة " الرصاص !! " إلا الحب لا وفاق بينه وبين رائحة الموتى " !

صباح كل حرب لا تأتى الشمس ! تمنح أهـالي الـوطن وعـداً باللقاء ولا تأتى !! ربما تعثرت في ليـل الاحـتلال الكئيـب ! وربمـا أدمنت الهروب حد الاحتراف ! كانت سارة تلك المرأة التي أنجبتها الحروب لا يُفزعها صوت الفئـران ! و تُـدلل قطتهـا السـمينة ذات الشريطة المُلَوّنة كل مساء ! ولا تحلم بطلاء شفاه مُحَيَر " !! وكـان قدر " آدم " أن يصنع من جسده درعاً واقياً ؛ يكفي حبيبته الثـائرة شر النيران الغير مُبَررة !! منذ أن قطن دنيا العشرة أعوام وهو أبدي

الإقامة بأرصفة الوطن ! مُغترباً ؛ يحمل هوية الأرض الأم ! صدره يضج بأنفاس الحبيبة وحواسه تلتصق بصور حوائط منزله القديم ؛ الذى بات ذكرى ما إن لامس خاطره إلا و انهمرت في حضرتها دمعات تتكاثر في انتظام غير مرغوب فيه !! راحة يدى وطنك يا سارة عليكِ الاحتماء بها إن خانتك وجهة الوطن ! وتآمر على حقك المتآمَرون .. " عبارته تلك المُبَللة دمعاً ودماً ؛ ألقى بها في صندوق أثرى تحمله سيدة مُتجعدة الجبين تتجول في المدينة بأسرها بحثاً عن شربة مياه وكِسرة خبز ! سيدة دهستها عجلات العدو وحرمتها حاسة البصَر ومنحتها حق كاذب في أن تحيا نصف حياة !! ؛ تقضيها هائمة على وجهها بمدينة فاحت بميادينها رائحة القهر و أصدقائه !! تتنقل بالقرب من معسكرات المُحتَل كمن يتسول " الحب ! " كلما أبصرها " آدم " هون عليها ما تُلاقيه مانحاً اياها وعوداً من كرامه !! " و ما إن تُنصت العجوز لغنوة الغد من آدم إلا و يقفز قلبها فرحة وتهب مُسرِعَة للجهة الأخرى في المدينة حيث تجلس سارة بين مصابي الحرب تُضمد جراحهم العميقة و تُلقى عليها سلام تَنشده في غدها القريب ! وتمنحها خطاب " آدم " في الحب والحرية " ! تجاوزت خطابات العاشقين مداها وطافت أحلامهم بحدود الأرض الرهينة ! وحلق قلبهم

بعيداً ؛ حيث يقطن سحرة الحرية " ! لم يعد الحب كلمة و لم يبقى للقلب أماني دنيوية زائلة ! " لم تكن سارة مجرد فتاة ؛ عانقت النضج بكل قوة ومضت على أعتاب العمر قُدماً فحسب ! بل كانت مُلهمة للإنسانية ؛ التي يستعرضها الأبطال على مسرح أوطانهم المُحتَلَة " ! لم ترى " آدم " حبيب يتنفس و يشعر ويمضى !بل كان في عينيها وطن ؛ يخفق نبض ثورته يوماً فيوم الى أن يُحَرر من أغلال الأمس القاسية " !! لم تره شاعراً بقدر ما رأته ثائراً ! ولم تره ثائراً بقدر ما رأته مُحارباً ! ولم تره مُحارباً بقدر ما رأته بطلاً ! بطلاً في احتضانه يتنفس " صُبح الاستقلال " ! " أنتِ شمسي يا سارة وقمري الساهر . . لا تتوقفي عن المُثابرة و احفري من قبور الغُزاة بيتاً بديعاً لكِ ولي ! و لأبنائنا الذين سنراهم حتماً في العالم الآخر !! " كانت تلك آخر رسالة ؛ عثرت عليها " سارة " في أحد جيوب سُترَة حبيبها بعد موته دفاعاً عن أبناء الحرب!!

أريد أن أضحك

"أريدُ أن أضحك و أنا على فـراش المـوت . . نعـم أريـدُ أن أضحك وما العجب فيما أقول ؟ !أريـدُ أن يرسـم قـدري ابتسـامة عريضة على وجهى ؛ تأخـذ بناصـيتي لـوادي البهجـة المُقَـدَس ! وتلك الحمامات البيضاء المُسالمة ؛ أرغـب في تقبيلـها وأود رؤيتهـا تصنع إسمـي قطعـة حلـوى ؛ تتوسـط سمـواتي الشـفافة " ألقـى ألفريد بتلك العبارات المُبَعثرة على صفحته الأولى ؛ التي رتب لهـا جيداً كي تصير أولى أحاديثه مع ذاته التى لطالمـا وعـدها بـالحوار ؛ حانثاً ذلك الوعد بعد فترة مُتخذاً من أيامه فصـلاً مُمـلاً مـن روايـة باهتة ! كرسيه المُتَحَرك ؛ يحتضـن أرض غرفتـه المتواضـعة وقـدماه يحاولان الوقوف ولا شيء يُجدى " !! أريدُ أن أضحك و أنا علـى فراش المـوت . . هكـذا صـرخ ألفريـد في وجـه ورقتـه ؛ واضـعاً مسؤولية الثورة علـى عجـزه بسـن ذلـك القلـم المُثـابر " مظـلات الإيمان؛ تمنح قلبه الأمان تواتيـه بالمـدد ، كلمـا دق اليـأس أبـواب فكره الآدمي " ! وما قيمة الأيام بلا أحلام " ؟

افتتح ألفريد جلسته المئوية في البكاء بتلك العبارة المُرَصَعة بكل علامات التعجب والاستفهام " ! يمر العمر أمامي كعجلات سيارة تدور بسرعة بالغة ، و أجلس أنا القرفصاء على أحد أرصفة الحياة ، لا أملك شيئاً سوى الانفعال إزاء اللحظات وما عساي أن أفعل منذ أن استأجرت ذلك الكرسي أو منذ أن استعبدنى هو ! قاطعت نبرته اليائسة تلك خاطرة أدبية ؛ تُصافح الشمس بكل ثبات ! حاصرت الخاطرة المُبهجة ذهنه بكل حب وبارك ألفريد جوارها المرغوب فيه هذا بإمساكه بتلابيب الأمل أخذ يدون لذاته بذاته ويشكو من ذاته لذاته ويمدح ذاته طمعاً فى مصادقة ذاته ! يتكاثر الغد على جانبي مقعده المُتحرك ؛ يتجاوز الفرح حدوده المعهودة ويقفز كسمكة مُلَونة فى بحر عينيه المرقرقتين بدموع أمسه الحزين ! أخذ ألفريد يغرز الحلم في المسافات بين خواطره روحه ترقص على أبواب مفكرته الصغيرة يُذيب مُكَعبة الثلجي الناتج عن صقيع عمره في أمطار تعلوها سحب خير وفراشات مُلَونة " ! أريدُ أن أضحك في فراش موتي أيتها الورقة . . أريد أن أبتكر موتة سعيدة على طريقتي ! لن أضع أكوام حزني أمام عيني سأتيمم بلحظة الإشراق ؛ كي أنعم بالسعادة من اليوم وحتى يوم الموت سأطهر نواياى ، وسأصادق الموت كالحياة ، والحياة كالموت !

فما حياتي الحالية إلا بداية لحياة أخرى وما موتى المؤجل إلا أجراس البداية فى عالم آخر ؛ أمتطى بأرضه أحصنة البقاء وحقاً أريدُ أن أضحك .

المحتويات

- إهداء ص٥
- مقدمة ص٦
- عزيزي أنا ص٧
- ثورة الأنا ص١٣
- أحياناً لا يذوب السكر ص١٨
- المائدة ص٢٢
- الحلم لا يورَث ! ص٢٦
- ديالا و أوجاز ص٣٠
- هؤلاء لا يأكلون الشوكلاتة ! ص٣٣
- صرخة شهرية ! ص٣٩
- وعد ص٤٣

- قرائي المُزعجين : شكراً ! ص٥٠
- باللامسافة رأيته ص٥٥
- أشباح الأديب ص٦١
- مي ص٦٢
- أيها الألم أنا كافرة بك ! ص٦٥
- سندريلا ص٧١
- هنا يرقد العجوز الغامض ص٧٨
- أبي لا تتركني معهم ! ص٨٧
- هل يركع القمر ؟ ص٨٩
- رحلة الى المأساة ! ص٩٢
- سارة . . ابنة الحرب ! ص٩٦
- أريد أن أضحك ص٩٩